

وهذا إجماع من أهل العلم .

قال الخطابي : لا أعلم خلافاً في أن المعالج إذا تعدى ، فتلّف المريض كان ضامناً ، والمتعاطي علماً أو عملاً لا يعرفه متعدد ، فإذا تولد من فعله التلف ضمن الدية ، وسقط عنه القود ، لأنه لا يستبدُّ بذلك بدون إذن المريض وجناية المتطبب في قول عامة الفقهاء على عاقلته .

قلت : الأقسام خمسة : أحدها : طيب حاذق أعطى الصنعة حقّها ولم تجن يده ، فتولّد من فعله المأذون فيه من جهة الشارع ، ومن جهة من يطبّه تلف العضو أو النفس ، أو ذهاب صفة ، فهذا لا ضمان عليه اتفاقاً ، فإنها سرّاية مأذون فيه ، وهذا كما إذا ختن الصبي في وقت ، وسبّه قابل للختان ، وأعطى الصنعة حقها ، فتلّف العضو أو الصبي ، لم يضمن ، وكذلك إذا بطّ من عاقل أو غيره ما ينبغي بطه في وقته على الوجه الذي ينبغي فتلّف به ، لم يضمن ، وهكذا سرّاية كلّ مأذون فيه لم يتعد الفاعل في سببها ، كسرّاية الحد بالاتفاق . وسرّاية القصاص عند الجمهور خلافاً لأبي حنيفة في إيجابه الضمان بها ، وسرّاية التعزير ، وضرب الرجل امرأته ، والمعلم الصبي ، والمستأجر الدابة ، خلافاً لأبي حنيفة والشافعي في إيجابهما الضمان في ذلك ، واستثنى الشافعي ضرب الدابة .

أقسام الأطباء من جهة إتلاف الأعضاء وذكر القسم الأول

وقاعدة الباب إجماعاً ونزاعاً : أن سرّاية الجناية مضمونة بالاتفاق ، وسرّاية الواجب مُهَدَّرَةٌ بالاتفاق ، وما بينهما ففيه النزاع . فأبو حنيفة أوجب ضمانه مطلقاً ، وأحمد ومالك أهدرا ضمانه ، وفرق الشافعي بين المُقَدَّر ، فأهدر ضمانه ، وبين غير المقدر فأوجب ضمانه . فأبو حنيفة نظر إلى أن الإذن في الفعل إنما وقع مشروطاً بالسلامة ، وأحمد ومالك نظرا إلى أن الإذن أسقط الضمان ، والشافعي نظر إلى أن المقدّر لا يمكن التقصان منه ، فهو بمنزلة النص ، وأما غير المقدر كالتعزيرات ، والتأديبات ، فاجتهادية ، فإذا تلّف بها ، ضمن ، لأنه في مِظَنَّةِ العُدوان .

فصل

القسم الثاني

القسم الثاني: متطبِّبٌ جاهلٌ باشرت يده من يطبه، فتلف به، فهذا إن علم المجني عليه أنه جاهل لا علم له، وأذن له في طبه لم يضمن، ولا تُخالف هذه الصورة ظاهر الحديث، فإن السياق وقوة الكلام يدل على أنه غرَّ العليل، وأوهمه أنه طبيب، وليس كذلك، وإن ظنَّ المريض أنه طبيب، وأذن له في طبه لأجل معرفته، ضمَّن الطبيب ما جنت يده، وكذلك إن وصف له دواء يستعمله، والعليلُ يظن أنه وصفه لمعرفته وحذقه فتلف به، وضمَّنه، والحديثُ ظاهر فيه أو صريح.

فصل

القسم الثالث

القسم الثالث: طبيب حاذق، أذن له، وأعطى الصنعة حقها، لكنه أخطأت يده، وتعدت إلى عضو صحيح فأتلفه، مثل: أن سبقت يدُ الخاتن إلى الكمرة، فهذا يضمن، لأنها جنابة خطأ، ثم إن كانت الثلث فما زاد، فهو على عاقلته، فإن لم تكن عاقلة، فهل تكون الدية في ماله، أو في بيت المال؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد. وقيل: إن كان الطبيب ذمياً، ففي ماله، وإن كان مسلماً، ففيه الروايتان، فإن لم يكن بيت مال، أو تعدر تحميلة، فهل تسقط الدية، أو تجب في مال الجاني؟ فيه وجهان أشهرهما: سقوطها.

فصل

القسم الرابع

القسم الرابع: الطبيب الحاذق الماهر بصناعته، اجتهد فوصف للمريض دواءً، فأخطأ في اجتهاده، فقتله، فهذا يُخرَج على روايتين: إحداهما: أن دية المريض في بيت المال. والثانية: أنها على عاقلة الطبيب، وقد نص عليهما الإمام أحمد في خطأ الإمام والحاكم.

فصل

القسم الخامس: طيب حاذق، أعطى الصنعة حقها، فقطع سلعة^(١) من رجل أو صبي، أو مجنون بغير إذن، أو إذن وليه، أو ختن صيباً بغير إذن وليه فَكَلَفَ، فقال أصحابنا: يضمن، لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه، وإن أذن له البالغ، أو ولي الصبي والمجنون، لم يضمن، ويحتمل أن لا يضمن مطلقاً لأنه محسن، وما على المحسنين من سبيل. وأيضاً فإنه إن كان متعدياً، فلا أثر للإذن الولي في إسقاط الضمان، وإن لم يكن متعدياً، فلا وجه لزمانه. فإن قلت: هو متعد عند عدم الإذن، غير متعد عند الإذن، قلت: العُدوان وعدمه إنما يرجع إلى فعله هو، فلا أثر للإذن وعدمه فيه، وهذا موضع نظر.

القسم الخامس

فصل

والطبيب في هذا الحديث يتناول من يطب بوصفه وقوله، وهو الذي يُخَصُّ باسم الطبائعي، وبمروءيه، وهو الكحال، وبمبضعه ومراهمه وهو الجرائحي، وبموساه وهو الخاتين، وبريشته وهو الفاصد، وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجّام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر، وبمكواته وناره وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن، وسواء كان طبه لحيوان بهيم، أو إنسان، فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم، كما تقدم، وتخصيص الناس له ببعض أنواع الأطباء عرف حادث، كتخصيص لفظ الدابة بما يخصها به كل قوم.

اقسام الأطباء المذكورة سابقاً تتناول الطب عملاً أو قولاً إنساناً أو حيواناً واسم كل منهم

فصل

والطبيب الحاذق: هو الذي يراعي في علاجه عشرين أمراً: أحدها: النظر في نوع المرض من أي الأمراض هو؟

ما يراعيه الطبيب الحاذق من الأمور

(١) السلعة: زيادة تحدث في البدن كالغدة تتحرك إذا حركت.

الثاني : النظر في سببه من أي شيء حدث ، والعللة الفاعلة التي كانت سبب حدوثه ما هي؟ .

الثالث : قوة المريض ، وهل هي مقاومة للمرض ، أو أضعفُ منه؟ فإن كانت مقاومةً للمرض ، مستظهرة عليه ، تركها والمريض ، ولم يُحرك بالدواء ساكناً .

الرابع : مزاج البدن الطبيعي ما هو؟

الخامس : المزاج الحادث على غير المجري الطبيعي .

السادس : سن المريض .

السابع : عاداته .

الثامن : الوقت الحاضر من فصول السنة وما يليق به .

التاسع : بلد المريض وتربته .

العاشر : حال الهواء في وقت المرض .

الحادي عشر : النظر في الدواء المضاد لتلك العلة .

الثاني عشر : النظر في قوة الدواء ودرجته ، والموازنة بينها وبين قوة المريض .

الثالث عشر : ألا يكون كل قصده إزالة تلك العلة فقط ، بل إزالتها على وجه يأمن معه حدوث أصعب منها ، فمتى كان إزالتها لا يأمن معها حدوث علة أخرى أصعبَ منها ، أبقاها على حالها ، وتلطيفها هو الواجب ، وهذا كمرض أفواه العروق ، فإنه متى عُولج بقطعه وحبسه خيف حدوث ما هو أصعب منه .

الرابع عشر : أن يُعالج بالأسهل فالأسهل ، فلا ينتقلُ من العلاج بالغذاء إلى الدواء إلا عند تعذره ، ولا ينتقلُ إلى الدواء المركب إلا عند تعذر الدواء البسيط ، فمن حذق الطبيب علاجه بالأغذية بدل الأدوية ، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة .

الخامس عشر : أن ينظر في العلة ، هل هي مما يمكن علاجها أو لا؟ فإن

أن يكون قصده إزالة العلة على وجه يأمن معه حدوث أصعب منها

أن يعالج بالأسهل فالأسهل

لم يُمكن علاجها، حفظ صناعته وحُرْمته، ولا يحْمِلُه الطمع على علاج لا يفيد شيئاً. وإن أمكن علاجها، نظر هل يمكن زوالها أم لا؟ فإن علم أنه لا يمكن زوالها، نظر هل يمكن تخفيفها وتقليلها أم لا؟ فإن لم يكن تقليلها، ورأى أن غاية الإمكان إيقافها وقطع زيادتها، قصد بالعلاج ذلك، وأعان القوة، وأضعف المادة.

السادس عشر: ألا يتعرض للخلط قبل نُضْجِه باستفراغ، بل يقصد إنضاجه، فإذا تمَّ نُضْجُه، بادر إلى استفراغه.

السابع عشر: أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها، وذلك أصل عظيم في علاج الأبدان، فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود، والطبيب إذا كان عارفاً بأمراض القلب والروح وعلاجهما، كان هو الطبيب الكامل، والذي لا خبرة له بذلك وإن كان حاذقاً في علاج الطبيعة وأحوال البدن نصف طبيب. وكل طبيب لا يداوي العليل، بتفقد قلبه وصلاحه، وتقوية روحه وقواه بالصدقة، وفعل الخير، والإحسان، والإقبال على الله والدار الآخرة، فليس بطبيب، بل متطبب قاصر. ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والإحسان والذكر والدعاء، والتضرع والابتهاال إلى الله، والتوبة، ولهذه الأمور تأثير في دفع العلل، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها في ذلك ونفعه.

أن يكون له خبرة باعتلال القلوب

الثامن عشر: التلطف بالمريض، والرّفق به، كالتلطف بالصبي.

التاسع عشر: أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعية والإلهية، والعلاج بالتخييل، فإن لحذاق الأطباء في التخييل أموراً عجيبة لا يصل إليها الدواء، فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين.

العشرون: — وهو ملاك أمر الطبيب — ، أن يجعل علاجَه وتديبرَه دائراً على ستة أركان: حفظ الصحة الموجودة، ورد الصحة المفقودة بحسب الإمكان،

وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان، واحتمالُ أدنى المفسدتين لإزالة أعظمهما، وتفويتُ أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما، فعلى هذه الأصول الستة مدارُ العلاج، وكُلُّ طبيب لا تكون هذه أخِيَّتَهُ^(١) التي يرجع إليها، فليس بطبيب، والله أعلم.

فصل

ولما كان للمرض أربعة أحوال: ابتداءً، وصعوداً، وانتهاءً، وانحطاطاً، مراعاة الطبيب لأحوال المرض
تعيّن على الطبيب مراعاة كل حال من أحوال المرض بما يُناسبها ويليق بها، ويستعملُ في كل حال ما يجبُ استعماله فيها. فإذا رأى في ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة إلى ما يُحرِّك الفضلات ويستفرِّغها لنضجها، بادر إليه، فإن فاتته تحريك الطبيعة في ابتداء المرض لعائق منع من ذلك، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ، أو لبرودة الفصل، أو لتفريط وقع، فينبغي أن يحذَرَ كُلَّ الحذرِ أن يفعل ذلك في صعود المرض، لأنه إن فعله، تحيَّرت الطبيعة لاشتغالها بالدواء، وتخلت عن تدبير المرض ومقاومته بالكلية، ومثاله: أن يجيء إلى فارس مشغول بمواقعة عدوه، فيشغله عنه بأمر آخر، ولكن الواجب في هذه الحال أن يُعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه.

فإذا انتهى المرض ووقف وسكن، أخذ في استفراغه، واستئصال أسبابه، فإذا أخذ في الانحطاط، كان أولى بذلك. ومثالُ هذا مثال العدو إذا انتهت قوته، وفرغ سلاحه، كان أخذه سهلاً، فإذا ولى وأخذ في الهرب، كان أسهلَ أخذاً، وحِدته وشوكته إنما هي في ابتدائه، وحال استفراغه، وسعة قوته، فهكذا الداء، والدواء سواء.

فصل

وَمِنْ حِذْقِ الطَّبِيبِ أَنَّهُ حَيْثُ أَمَكْنَ التَّدْبِيرَ بِالْأَسْهَلِ، فَلَا يَعْذِلُ إِلَى
من حذق الطبيب بتدبير
بالأسهل.

(١) الأخية بزنة أيّة: الحرمة والذمة، وعود وعروة تشد بها الدابة مثنية في الأرض.

الأصعب، ويتدرّج من الأضعف إلى الأقوى إلا أن يخاف فوت القوة حينئذ، فيجب أن يبتدىء بالأقوى، ولا يُقيم في المعالجة على حال واحدة فتألفها الطبيعة، ويقلُّ انفعالها عنه، ولا تجسُر على الأدوية القوية في الفصول القوية، وقد تقدم أنه إذا أمكنه العلاجُ بالغذاء، فلا يُعالج بالدواء، وإذا أشكل عليه المرضُ أحرارٌ هو أم بارد؟ فلا يقدم حتى يتبيّن له، ولا يُجرِّبه بما يخاف عاقبته، ولا بأس بتجربته بما لا يضرُّ أثره.

وإذا اجتمعت أمراض، بدأ بما تخصه واحدة من ثلاث خصال: إحداها: أن يكون بُرء الآخر موقوفاً على بُرئه كالورم والقرحة، فإنه يبدأ بالورم.

ما يفعله الطبيب إذا
اجتمعت أمراض

الثانية: أن يكون أحدها سبباً للآخر، كالسدة والحُمى العفنة، فإنه يبدأ بإزالة السبب.

الثالثة: أن يكون أحدهما أهم من الآخر، كالحاد والمزمن، فيبدأ بالحاد، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر. وإذا اجتمع المرض والعرض، بدأ بالمرض، إلا أن يكون العرض أقوى كالقولنج^(١)، فيُسكن الوجع أولاً، ثم يُعالج السدة، وإذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ بالجوع أو الصوم أو النوم، لم يستفرغه، وكُلّ صحة أراد حفظها، -حفظها بالمثل أو الشبه، وإن أراد نقلها إلى ما هو أفضل منها، نقلها بالضد.

فصل

في هديه ﷺ في التحرز من الأدوية المعدية بطبعها وإرشاده
الأصحاء إلى مجانبة أهلها

ثبت في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله، أنه كان في وفد ثقيف

(١) القولنج: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الفضل والريح.

رجلٌ مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ: «ارْجِعْ فَقَدْ بَايَعْنَاكَ»^(١).

وروى البخاري في «صحيحه» تعليقا من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «فِرَّ مَنْ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ»^(٢).

وفي «سنن ابن ماجه» من حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «لَا تُدِيمُوا النَّظَرَ إِلَى الْمَجْذُومِينَ»^(٣).

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُورَدَنَّ مُمْرَضٌ عَلَى مُصِحٍّ»^(٤).

ويذكر عنه ﷺ: «كَلَّمَ الْمَجْذُومَ، وَبَيَّنَّكَ وَبَيَّنَّهُ قِيدَ رُمْحٍ أَوْ رُمْحَيْنِ»^(٥).

-
- (١) أخرجه مسلم (٢٢٣١) في السلام: باب اجتناب المجذوم ونحوه.
- (٢) أخرجه البخاري ١٣٢/١٠ في الطب: باب الجذام، عن عفان، عن سليم بن حيّان، عن سعيد بن ميناء، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد» قال الحافظ: وعفان: هو ابن مسلم الصفار، وهو من شيوخ البخاري، لكن أكثر ما يخرج عنه بواسطة، وهو من المعلقات التي لم يصلها في موضع آخر، وقد جزم أبو نعيم أنه أخرجه عنه بلا رواية، وعلى طريقة ابن الصلاح يكون موصولاً، وقد وصله أبو نعيم من طريق أبي داود الطيالسي، وأبي قتبية مسلم بن قتيبة، كلاهما عن سليم بن حيّان شيخ عفان فيه، وأخرجه أيضاً من طريق عمرو بن مرزوق، عن سليم، لكن موقوفاً، ولم يستخرجه الإسماعيلي، وقد وصله ابن خزيمة أيضاً.
- (٣) أخرجه ابن ماجه (٣٥٤٣) في الطب: باب الجذام، وأحمد رقم (٢٠٧٢) وسنده قوي.
- (٤) أخرجه البخاري ٢٠٦/١٠ في الطب: باب لا هامة، وباب لا عدوى، ومسلم (٢٢٢١) في السلام: باب لا عدوى ولا طيرة، والممرض: هو الذي له إبل مرضى، والمصح: من له إبل صحاح.
- (٥) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد ٧٨/١ من حديث علي رضي الله عنه، وفي سنده الفرغ بن فضالة وهو ضعيف، وأورده الهيثمي في «المجمع» ١٠١/٥، وأعله =

الجذام: علة رديئة تحدث من انتشار المِرَّة السوداء في البدن كُلِّه، فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها وشكلها، وربما فسد في آخره اتصالها حتى تتأكل الأعضاء وتسقط، ويُسمى داء الأسد^(١).

وفي هذه التسمية ثلاثة أقوال للأطباء: أحدها: أنها لكثرة ما تعتري الأسد. والثاني: لأن هذه العلة تُجهَّم وجه صاحبها وتجعله في سحنة الأسد.

والثالث: أنه يفترس من يقربه، أو يدنو منه بدائه افتراس الأسد.

وهذه العلة عند الأطباء من العلل المُعدية المتوارثة، ومقارب المجذوم، وصاحب السل يَسْتَقِمُّ برأئته، فالنبي ﷺ لِكَمال شفقته على الأمة، ونُصحهم لها، نهاهم عن الأسباب التي تُعرضهم لوصول العيب والفساد إلى أجسامهم وقلوبهم، ولا ريب أنه قد يكون في البدن تهيؤ واستعداد كامن لقبول هذا الداء، وقد تكون الطبيعة سريعة الانفعال قابلةً للاكتساب من أبدان من تُجاوره وتخالطه، فإنها نقالة، وقد يكون خوفها من ذلك وهمها من أكبر أسباب إصابة تلك العلة لها، فإن الوهم فعّال مستولٍ على القوى والطباع، وقد تصلُّ رائحة العليل إلى الصحيح فتسقمه، وهذا معاين في بعض الأمراض، والرائحة أحد أسباب العدوى، ومع هذا كله فلا بد من وجود استعداد البدن وقبوله لذلك الداء، وقد

= بالفرج بن فضالة، وفي الباب عن الحسين بن علي عند أبي يعلى والطبراني، وفي سند أبي يعلى الفرج بن فضالة، وفي سند الطبراني يحيى الحماني، وهو ضعيف. (١) قال الدكتور الأزهري: هذا المرض سمي بداء الأسد، لأنه يحول وجه المريض بما يجعله يشبه الأسد، لكثرة وجود أورام صغيرة وتجعدات في الوجه، وخطورة هذا المرض في إتلاف الأعصاب المتطرفة، فيفقد المريض حساسية الأطراف أولاً، ثم تتساقط الأصابع تدريجياً، وهو من الأمراض المعدية التي تجيء عدواها من التنفس مع المخالطة الطويلة، ويعزل الآن جميع مرضى الجذام في مستعمرات خاصة لهم لمنع انتشار المرض.

تزوَّج النبي ﷺ امرأة، فلما أراد الدخولَ بها، وجد بكشحها بياضاً، فقال: «الحَقِّي بِأَهْلِكَ»^(١).

التوفيق بين الأحاديث
السابقة وبين نفي
العدوى والأكل مع
المجذوم

وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الأحاديث معارضة بأحاديث أخر تُبطلها وتناقضها، فمنها: ما رواه الترمذي، من حديث جابر^(٢)، أن رسول الله ﷺ أخذ بيد رجل مجذوم، فأدخلها معه في القَصْعَةِ، وقال: «كُلْ بِسْمِ اللَّهِ ثِقَةً بِاللَّهِ، وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ»؛ ورواه ابن ماجه.

وبما ثبت في «الصحيح»، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة».

ونحن نقول: لا تعارض بحمد الله بين أحاديثه الصحيحة. فإذا وقع التعارض، فإما أن يكون أحد الحديثين ليس من كلامه ﷺ وقد غلَطَ فيه بعض الرواة مع كونه ثقة ثبناً، فالثقة يغلط، أو يكون أحد الحديثين ناسخاً للآخر إذا كان مما يقبلُ النسخ، أو يكون التعارض في فهم السامع، لا في نفس كلامه ﷺ، فلا بُد من وجه من هذه الوجوه الثلاثة.

وأما حديثان صحيحان صريحان متناقضان من كل وجه، ليس أحدهما ناسخاً للآخر، فهذا لا يوجد أصلاً، ومعادَ اللَّهِ أن يُوجَدَ في كلام الصادق المصدوق الذي لا يخرج من بين شفثيه إلا الحقُّ، والآفة من التقصير في معرفة المنقول، والتميز بين صحيحه ومعلوله، أو من القُصور في فهم مراده ﷺ،

(١) أخرجه أحمد ٤٩٣/٣ من حديث كعب بن زيد أو زيد بن كعب، وفي سننه جميل بن زائد الطائي ضعفه غير واحد كما في «تعجيل المنفعة».

(٢) في الأصل: من حديث عبد الله بن عمر، وهو خطأ، وهو في سنن الترمذي (١٨١٨) في الأطعمة: باب ما جاء في الأكل مع المجذوم، وأبي داود (٣٩٢٥) في الطب: باب الطيرة، وابن ماجه (٣٥٤٢) في الطب: باب الجذام، كلهم من حديث جابر بن عبد الله، وفي سننه المفضل بن فضالة، وهو ضعيف، وقد عدوا هذا الحديث من مناكير، وسبأني للمصنف تضعيفه.

وحمل كلامه على غير ما عناه به، أو منهما معاً، ومن ها هنا وقع من الاختلاف والفساد ما وقع، وبالله التوفيق.

التوفيق بيها من كلام
ابن قتيبة

قال ابن قتيبة في كتاب «اختلاف الحديث» له حكاية عن أعداء الحديث وأهله، قالوا: حديثان متناقضان رويتم عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة». وقيل له: إن الثُّبَّةَ تقع بمشْفَرِ البَعِيرِ، فيجربُ لذلك الإيلُ. قال: «فما أعدى الأول»^(١)، ثم رويتم «لا يُورد ذو عاهة على مُصَحَّحٍ، وفِرٌّ من المجذوم فرارك من الأسدِ»، وأتاه رجل مجذوم لبياعه بيعة الإسلام، فأرسل إليه البيعة، وأمره بالانصراف، ولم يأذن له، وقال: «الشؤم في المرأة والدار والدَّابَّة»^(٢). قالوا: وهذا كُلُّه مختلف لا يُشبه بعضُه بعضاً.

قال أبو محمد: ونحن نقول: إنه ليس في هذا اختلاف، ولكل معنى منها

- (١) أخرجه أحمد ٢/٣٢٧ من حديث أبي هريرة، وإسناده صحيح.
- (٢) أخرجه مالك ٢/٩٧٢ والبخاري ٩/١١٨ في النكاح: باب ما يتقي من شؤم المرأة، ومسلم (٢٢٢٥) في السلام: باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم، والترمذي (٢٨٢٥) من حديث عبد الله بن عمر، وأخرجه البخاري عنه بلفظ «إن كان الشؤم في شيء، ففي الدار والمرأة والفرس» وأخرجه البخاري ٩/١١٨، ومالك ٢/٩٧٢، ومسلم (٢٢٢٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي بلفظ «إن كان الشؤم في شيء، ففي الفرس والمرأة والمسكن» وأخرجه مسلم (٢٢٢٧) من حديث جابر بلفظ «إن كان في شيء، ففي الرُّبْعِ والخادم والفرس» قال ابن الجوزي: ومعنى الحديث: إن خيف من شيء أن يكون سبباً لما يخاف شره ويتشاءم به، فهذه الأشياء لا على السبيل التي تظنها الجاهلية من العدوى والطيرة، وإنما القدر يجعل للأسباب تأثيراً، وقال الخطابي: لما كان الإنسان في غالب أحواله لا يستغني عن دار يسكنها، وزوجة يعاشرها، وفرس يرتبطه، وكان لا يخلو من عارض مكروه، أضيف اليمين والشؤم إلى هذه الأشياء إضافة محل وظرف، وإن كانا صادرين عن قضاء الله سبحانه.

وقال عبد الرزاق في «مصنفه» عن معمر: سمعت من يفسر هذا الحديث يقول: شؤم المرأة: إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس: إذا لم يغز عليه، وشؤم الدار: جار السوء، وانظر «فتح الباري» ٦/٤٥، ٤٨.

وقتٌ وموضع، فإذا وضع موضعه زال الاختلاف.

والعدوى جنسان: أحدهما: عدوى الجذام، فإن المجذوم تشتد راحته حتى يُسَقِّمَ من أطال مجالسته ومحادثته، وكذلك المرأة تكون تحت المجذوم، فتُضاجِعُه في شعار واحد، فيُوصِلُ إليها الأذى، وربما جُدِّمَتْ، وكذلك ولده يَنْزِعُونَ في الكبر إليه، وكذلك من كان به سِلٌّ وَدِقٌّ وَنُقْبٌ. والأطباء تأمر أن لا يُجالس المسلول ولا المجذوم، ولا يُريدون بذلك معنى العدوى، وإنما يُريدون به معنى تغير الرائحة، وأنها قد تُسَقِّمُ من أطال اشتماها، والأطباء أبعُدُ الناس عن الإيمان بيمين وشؤم، وكذلك الثَّقبَةُ تكون بالبعير — وهو جَرَبٌ رطب — فإذا خالط الإبل أو حاكها، وأوى في مباركها، وصل إليها بالماء الذي يسيل منه، وباللطف نحو ما به، فهذا هو المعنى الذي قال فيه النبي ﷺ: «لا يُورَدُ ذُو عَاهَةِ عَلَى مُصِيحٍ»، كره أن يُخالط المعيوه الصحيح، لثلا يناله من نطفه وحكته نحو مما به.

قال: وأما الجنس الآخر من العدوى، فهو الطاعون ينزل ببلد، فيخرج منه خوف العدوى، وقد قال ﷺ: «إِذَا وَقَعَ بِبَلَدٍ، وَأَنْتُمْ بِهِ، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ بِبَلَدٍ، فَلَا تَدْخُلُوهُ». يريد بقوله: لا تخرجوا من البلد إذا كان فيه كأنكم تظنون أن الفرار من قدر الله يُنجيكم من الله، ويُريد إذا كان ببلد، فلا تدخلوه، أي: مقامكم في الموضع الذي لا طاعون فيه أسكن لقلوبكم، وأطيب لعيشكم، ومن ذلك المرأة تُعرف بالشؤم أو الدار، فينال الرجل مكروه أو جائحة، فيقول: أعدتني بشؤمها، فهذا هو العدوى الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا عدوى»^(١).

وقالت فرقة أخرى: بل الأمر باجتناب المجذوم والفرار منه على الاستحباب، والاختيار، والإرشاد، وأما الأكل معه، ففعله لبيان الجواز، وأن هذا ليس بحرام.

وقالت فرقة أخرى: بل الخطابُ بهذين الخطابين جزئي لا كلي، فكل

(١) تأويل مختلف الحديث ١٠٢، ١٠٤.

واحد خاطبه النبي ﷺ بما يليق بحاله، فبعضُ الناس يكون قوياً بالإيمان، قوياً التوكل تدفع قوةً توكله قوةً العدو، كما تدفع قوة الطبيعة قوة العلة فتبطلها، وبعضُ الناس لا يقوى على ذلك، فخاطبه بالاحتياط والأخذ بالتحفظ، وكذلك هو ﷺ فعل الحاليتين معاً، لتقتدي به الأمة فيهما، فيأخذ من قوي من أمته بطريقة التوكل والقوة والثقة بالله، ويأخذ من ضعف منهم بطريقة التحفظ والاحتياط، وهما طريقان صحيحان. أحدهما: للمؤمن القوي، والآخر للمؤمن الضعيف، فتكون لكل واحد من الطائفتين حجة وقدوة بحسب حالهم وما يناسبهم، وهذا كما أنه ﷺ كوى، وأثنى على تارك الكبي، وقرن تركه بالتوكل، وترك الطيرة، ولهذا نظائر كثيرة، وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً من أعطائها حقها، ورزق فقه نفسه فيها، أزالته عنه تعارضاً كثيراً يظنه بالسنة الصحيحة.

وذهبت فرقة أخرى إلى أن الأمر بالفرار منه، ومجانبته لأمر طبيعي، وهو انتقالُ الداء منه بواسطة الملامسة والمخالطة والرائحة إلى الصحيح، وهذا يكون مع تكرير المخالطة واللامسة له، وأما أكله معه مقداراً يسيراً من الزمان لمصلحة راجحة، فلا بأس به، ولا تحصلُ العدوى من مرة واحدة ولحظة واحدة، فهي سداً للذريعة، وحماية للصحة، وخالفه مخالطة ما للحاجة والمصلحة، فلا تعارض بين الأمرين.

وقالت طائفة أخرى: يجوز أن يكون هذا المجذوم الذي أكل معه به من الجذام أمر يسير لا يُعدي مثله، وليس الجذمي كلهم سواء، ولا العدوى حاصلة من جميعهم، بل منهم من لا تضرُّ مخالطته، ولا تُعدي، وهو من أصابه من ذلك شيء يسير، ثم وقف واستمر على حاله. ولم يُعد بقية جسمه، فهو أن لا يعدي غيره أولى وأحرى.

وقالت فرقة أخرى: إن الجاهلية كانت تعتقد أن الأمراض المعدية تُعدي بطبعها من غير إضافة إلى الله سبحانه، فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم ذلك، وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله سبحانه هو الذي يُمرض ويشفى، ونهى عن القرب منه

ليتين لهم أن هذا من الأسباب التي جعلها الله مُفضية إلى مسبباتها، ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله بيان أنها لا تستقل بشيء، بل الربُّ سبحانه إن شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقى عليها قواها فأثرت.

وقالت فرقة أخرى: بل هذه الأحاديث فيها الناسخ والمنسوخ، فينظر في تاريخها، فإن علم المتأخر منها، حكم بأنه الناسخ، وإلا توقفنا فيها.

وقالت فرقة أخرى: بل بعضها محفوظ، وبعضها غير محفوظ، وتكلمت في حديث «لا عدوى»، وقالت: قد كان أبو هريرة يرويه أولاً، ثم شكَّ فيه فتركه، وراجعوه فيه، وقالوا: سمعناك تُحدِّث به، فأبى أن يُحدِّث به.

قال أبو سلمة: فلا أدري، أنسي أبو هريرة، أم نسَخَ أحدُ الحديثين الآخر؟

وأما حديث جابر: أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم، فأدخلها معه في القصعة، فحديث لا يثبت ولا يصحُّ، وغاية ما قال فيه الترمذي: إنه غريب، لم يصححه ولم يحسنه. وقد قال شعبة وغيره: اتقوا هذه الغرائب. قال الترمذي: ويروى هذا من فعل عمر، وهو أثبت، فهذا شأنُ الحديثين اللذين عورض بهما أحاديثُ النهي، أحدهما: رجع أبو هريرة عن التحديث به وأنكره، والثاني: لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، والله أعلم، وقد أشبعنا الكلام في هذه المسألة في كتاب «المفتاح»^(١) بأطول من هذا، وبالله التوفيق.

فصل

في هديه ﷺ في المنع من التداوي بالمحرمات

روى أبو داود في «سننه» من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالِدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوُوا، وَلَا

(١) أي «مفتاح دار السعادة» انظر الجزء الثاني ٢٦٤، ٢٧٣.

تَدَاوُوا بِالْمُحَرَّمِ»^(١).

وذكر البخاري في «صحيحه» عن ابن مسعود: إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم^(٢).

وفي «السنن»: عن أبي هريرة، قال: نهى رسول الله ﷺ عَنِ الدَّوَاءِ الخَبِيثِ^(٣).

وفي «صحيح مسلم» عن طارق بن سويد الجعفي، أنه سأل النبي ﷺ عن الخمر، فنهاه، أو كرهه أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ»^(٤).

وفي «السنن» أنه ﷺ سئل عن الخمر يُجعل في الدَّوَاءِ، فقال: «إِنَّهَا دَاءٌ»

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٧٤) في الطب: باب في الأدوية المكروهة، من حديث إسماعيل بن عياش، عن ثعلبة بن مسلم الخثعمي الشامي، عن أبي عمران الأنصاري، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، ورجاله ثقات خلا ثعلبة بن مسلم، فقد وثقه ابن حبان وروى عنه جمع، فهو حسن ويشهد له حديث أبي هريرة عند أبي داود الذي سيذكره المصنف بعده.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨/١٠ تعليقا في الطب: باب شراب الحلواء والعسل بلفظ وقال ابن مسعود في السُّكَّرِ: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم» قال الحافظ: رويت الأثر المذكور في فوائد علي بن حرب الطائي عن سفيان بن عيينة عن منصور أبي وائل قال: اشتكى رجل منا يقال له: خثيم بن العداء داء في بطنه يقال له: الصَّفَرُ، فُتِعِتْ له السُّكَّرُ — وهو الخمر — فأرسل إلى ابن مسعود يسأله فذكره، وأخرجه ابن أبي شيبة عن جرير عن منصور، وسنده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أحمد في «كتاب الأشربة» رقم (١٣٠) والطبراني في «الكبير» من طريق أبي وائل نحوه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٧٠) والترمذي (٢٠٤٦)، وابن ماجه (٣٤٥٩)، وأحمد ٣٠٥/٢، و٤٤٦، و٤٧٨، وسنده قوي.

(٤) أخرجه مسلم (١٩٨٤) في الأشربة: باب تحريم التداوي بالخمر.

وَلَيْسَتْ بِالذَّوَاءِ»، رواه أبو داود، والترمذي^(١).

وفي «صحيح مسلم» عن طارق بن شويد الحضرمي، قال: قلت: يا رسول الله! إن بأرضنا أعتاباً نعتصرها فنشرب منها، قال: «لا» فراجعته، قلت: إننا تستنفي للمريض، قال: «إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِشِفَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ»^(٢).

وفي «سنن النسائي» أن طبيباً ذكر ضِفْدَعاً في دواء عند رسول الله ﷺ، فنهاه عن قَتْلِهَا^(٣).

ويُذَكَّرُ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَدَاوَى بِالْخَمْرِ، فَلَا شِفَاءَ لِلَّهِ»^(٤).

بيان قبح المعالجة
بالمحرمات عقلاً

المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلاً وشرعاً، أما الشرع فما ذكرنا من هذه الأحاديث وغيرها، وأما العقل، فهو أن اللذة سبحانه إنما حرّمه لخبيثه، فإنه لم يُحرّم على هذه الأمة طيباً عقوبة لها، كما حرّمه على بني إسرائيل بقوله: ﴿فَيُظْلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]؛ وإنما حرم على هذه الأمة ما حرّم لخبيثه، وتحريمه له حمية لهم، وصيانة عن تناوله، فلا يُناسبُ أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعِلل، فإنه وإن أثر في إزالتها، لكنه يُعقِبُ سَقَمًا أعظم منه في القلب بقوة الخُبث الذي فيه، فيكون المُدَاوَى بِهِ قد سعى في إزالة سقم البدن بسقم القلب.

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٧٣) في الطب: باب ما جاء في الأدوية المكروهة، والترمذي (٢٠٤٧) من حديث طارق بن سويد، وسنده حسن، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان (١٣٧٧).

(٢) لقد وهم المؤلف رحمه الله في عزو هذا الحديث إلى مسلم بهذا اللفظ، فإنه ليس فيه وإنما هو عند أحمد في «المسند» ٣١١/٤، وابن ماجه (٣٥٠٠).

(٣) أخرجه النسائي ٢١٠/٧ في الصيد: باب الضفدع، وأحمد ٤٥٣/٣، و ٤٩٩ من حديث عبد الرحمن بن عثمان، وسنده صحيح.

(٤) أورده السيوطي في «الجامع الصغير» بلفظ «من تداوى بحرام كخمر، لم يجعل الله له فيه شفاء» ونسبه إلى أبي نعيم في «الطب» من حديث أبي هريرة، ورمزه بالضعف.

وأيضاً فإن تحريمه يقتضي تجنُّبه والبعدَ عنه بكلِّ طريق، وفي اتخاذه دواءً
حُضُّ على الترغيب فيه وملاسته، وهذا ضدُّ مقصود الشارع، وأيضاً فإنه داء كما
نصَّ عليه صاحبُ الشريعة، فلا يجوز أن يتخذ دواءً.

وأيضاً فإنه يُكسِبُ الطبيعة والروح صفة الخبث، لأن الطبيعة تنفعلُ عن
كيفية الدواء انفعالاً بيناً، فإذا كانت كَيْفِيَّتُهُ خبيثَةً، اكتسبت الطبيعةُ منه خبثاً،
فكيفَ إذا كان خبيثاً في ذاته، ولهذا حرَّم الله سبحانه على عباده الأغذية والأشربةَ
والملايسَ الخبيثة، لما تكسب النفس من هيئة الخبث وصفته.

وأيضاً فإن في إباحة التداوي به، ولا سيما إذا كانت النفوسُ تميلُ إليه ذريعةً
إلى تناوله للشهوة واللذة، لا سيما إذا عرفت النفوسُ أنه نافع لها مزيلٌ لأسقامها
جالبٌ لشفائها، فهذا أحبُّ شيءٍ إليها، والشارعُ سدَّ الذريعةَ إلى تناوله بكلِّ
ممكن، ولا ريبَ أن بينَ سدِّ الذريعةَ إلى تناوله، وفتحِ الذريعةَ إلى تناوله تناقضاً
وتعارضاً.

التداوي به ذريعة إلى
تعاطيه

وأيضاً فإن في هذا الدواء المحرم من الأدواء ما يزيدُ على ما يُظن فيه
من الشفاء، ولنفرض الكلام في أمِّ الخبائث التي ما جعل الله لنا فيها شفاءً
قطُّ، فإنها شديدةُ المضرة بالدماع الذي هو مركزُ العقل عند الأطباء، وكثير
من الفقهاء والمتكلمين. قال أبقراط في أثناء كلامه في الأمراض الحادة:
ضرر الخمرة بالرأس شديد. لأنه يُسرِّع الارتفَاعَ إليه. ويرتفع بارتفاعه
الأخلاق التي تعلو في البدن، وهو كذلك يضر بالدهن.

وقال صاحب «الكامل»: إن خاصية الشراب الإضرارُ بالدماع والعصب.
وأما غيره من الأدوية المحرمة فتوعان:

أحدهما: تعافيه النفس ولا تتبعهُ لمساعدته الطبيعة على دفع المرض به
كالسموم، ولحوم الأفاعي وغيرها من المستفدرات، فيبقى كلاً على الطبيعة
مثقلاً لها، فيصير حينئذ داء لا دواء.

والثاني: ما لا تعافه النفس كالشراب الذي تستعمله الحوامل مثلاً، فهذا ضرره أكثر من نفعه، والعقل يقضي بتحريم ذلك، فالعقل والفطرة مطابق للشرع في ذلك.

وها هنا سر لطيف في كون المحرمات لا يُستشفى بها، فإن شرط الشفاء بالدواء تلقّيه بالقبول، واعتقادُ منفعتِهِ، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء، فإن النافع هو المبارك، وأنفعُ الأشياء أبركها، والمبارك من الناس أينما كان هو الذي ينتفع به حيث حلّ، ومعلوم أن اعتقاد المسلم تحريم هذه العين مما يحولُ بينه وبين اعتقاد بركتها ومنفعتها، وبين حسن ظنه بها، وتلقي طبعه لها بالقبول، بل كلما كان العبدُ أعظمَ إيماناً، كان أكره لها وأسوأ اعتقاداً فيها، وطبعه أكره شيء لها، فإذا تناولها في هذه الحال، كانت داء له لا دواء إلا أن يزولَ اعتقاد الخبث فيها، وسوء الظن والكراهة لها بالمحبة، وهذا يُنافي الإيمان، فلا يتناولها المؤمن قط إلا على وجه داء، والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج القمل الذي في الرأس وإزالته

في «الصحيحين» عن كعب بن عُجرة، قال: كان بي أذى من رأسي، فحملتُ إلى رسولِ الله ﷺ والقملُ يتناثرُ على وجهي، فقال: «مَا كُنْتُ أَرَى الْجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى»، وفي رواية: فأمره أن يَحْلِقَ رأسه، وأن يُطْعِمَ فَرْقاً بَيْنَ سِنَّةٍ، أو يُهْدِي شاةً، أو يَصُومَ ثلاثةَ أَيامٍ^(١).

(١) أخرجه البخاري ١٠/٤، ١٣ في الحج: باب قول الله تعالى (فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية) وباب قول الله تعالى: (أو صدقة) وباب الإطعام في الفدية نصف صاع، وباب النسك شاة، وفي المغازي: باب غزوة الحديبية، وفي تفسير سورة البقرة: باب (فمن كان منكم مريضاً) وفي المرضى: باب قول المريض: إني وجع أو: وارساه أو اشتد بي الوجع، وفي الطب: باب الحلق من =

القمل يتولد في الرأس والبدن من شيتين: خارج عن البدن وداخل فيه، فالخارج: الوسخُ والذنس المتراكم في سطح الجسد، والثاني من خلط رديء عفن تدفَعه الطبيعة بين الجلد واللحم، فيتعفنُ بالرطوبة الدموية في البَشْرَة بعد خُروجها من المسام، فيكون منه القملُ، وأكثرُ ما يكون ذلك بعد العلل والأسقام، وبسبب الأوساخ، وإنما كان في رؤوس الصبيان أكثر لكثرة رطوباتهم وتعاطيهم الأسباب التي تُولّد القمل، ولذلك حلق النبي ﷺ رؤوس بني جعفر.

ومن أكبرِ علاجِه حَلْقُ الرأسِ لِتفتَح مسامُ الأبخرة، فتتصاعد الأبخرة الرديئة، فتضعفُ مادة الخلط، ويبغى أن يُطلى الرأس بعد ذلك بالأدوية التي تقتل القمل، وتمنع تولّده.

علاجه بالحلق نه مانحلى
بالادوية

وحلقُ الرأسِ ثلاثة أنواع: أحدها: نسك وقربة. والثاني: بدعة وشرك، والثالث: حاجة ودواء، فالأول: الحلق في أحد التُّسكين، الحج أو العمرة. والثاني: حلقُ الرأس لغير الله سبحانه، كما يحلقها المریدون لشيوخهم، فيقول أحدهم: أنا حلقْتُ رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدتُ لفلان، فإن حلق الرأس خضوعٌ وعبودية وذلٌّ، ولهذا كان من تمام الحجِّ، حتى إنه عند الشافعي ركن من أركانه لا يَتِمُّ إلا به، فإنه وضعُ النواصي بين يدي ربها خضوعاً لعظمته، وتذلاً لعزته، وهو من أبلغ أنواع العبودية، ولهذا كانت العربُ إذا أرادت إذلالَ الأسير منهم وعِتَقَه، حلقوا رأسه وأطلقوه، فجاء شيوخُ الضلال، والمزاحمون للربوبية الذين أساسُ مشيختهم على الشرك والبدعة، فأرادوا من مریدیهم أن يتعبّدوا لهم، فزَيَّنوا لهم حَلْقَ رؤوسهم لهم، كما زَيَّنوا لهم السجودَ لهم، وسَمَّوه بغير اسمه، وقالوا: هو وضعُ الرأس بين يدي الشيخ، ولعمرُ الله إن السجود لله هو وضعُ الرأس بين يديه سبحانه، وزَيَّنوا لهم أن

أنواع حلق الرأس

الأذى، وفي الأيمان والنذور: باب تكفارات الأيمان، وأخرجه مسلم (١٢٠١) في الحج: باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى.

يَنْذِرُوا لَهُمْ، وَيَتُوبُوا لَهُمْ، وَيَحْلِفُوا بِأَسْمَائِهِمْ، وَهَذَا هُوَ اتِّخَاذُهُمْ أَرْبَاباً وَآلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ: كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتَيْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠].

وأشرف العبودية عبودية الصلاة، وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها، وهو السجود، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع، فإذا لقي بعضهم بعضاً ركع له كما يركع المصلي لربه سواء، وأخذ الجبابرة منهم القيام، فيقوم الأحرار والعيبد على رؤوسهم عبودية لهم، وهم جلوس، وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل، فتعاطيها. مخالفة صريحة له، فهي عن السجود لغير الله وقال: «لَا يَبْنِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ». وأنكر على معاذ لما سجد له وقال: «مه»^(١).

التحذير من الركوع
والانحناء لغير الله وكذا
القيام على رؤوس الأكارين
وهم جلوس

(١) أخرج أحمد ٥/٢٢٧، ٢٢٨ عن معاذ بن جبل أنه لما رجع من اليمن قال: يا رسول الله، رأيت رجلاً باليمن يسجد بعضهم لبعض أفلا نسجد لك، قال: «لو كنت أمراً بشراً يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» ورجاله ثقافات لكنه منقطع، وأخرج أحمد ٤/٣٨١ وابن ماجه (١٨٥٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: قدم معاذ اليمن أو قال: الشام فرأى النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها، فروأ في نفسه أن رسول الله ﷺ أحق أن يعظم، فلما قدم قال: يا رسول الله رأيت النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها. فروأت في نفسي أنك أحق أن تعظم، فقال: «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» وسنده حسن، وصححه ابن حبان (١٣٩٠)، وله شاهد من حديث قيس بن سعد قال: أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فقلت: رسول الله ﷺ أحق أن يسجد له قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فأنت يا رسول الله ﷺ أحق أن نسجد لك قال: «أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟ قلت: لا، قال: فلا تفعل، لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهن من الحق»، وفي الباب عن أبي هريرة عند الترمذي (١١٥٩) =

وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة، وتجوز من جَوَزه لِغير الله مُراعِمةً لله ورسوله، وهو من أبلِغِ أنواعِ العبودية، فإذا جَوَّزَ هذا المشرك هذا النوعَ للبشر، فقد جَوَّزَ العبودية لِغير الله، وقد صح أنه قيل له: الرَّجُلُ يَلْقَى أَخاهُ أَيْتَحْنِي له؟ قال: «لا». قيل: أَيْلتزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ قال: «لا». قيل: أَيْصَافِحُهُ؟ قال: «نعم»^(١).

وأيضاً: فالانحناء عند التحية سجد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨] أي منحنين، وإلا فلا يُمكن الدخول على الجباه، وصحَّ عنه النهي عن القيام، وهو جالس، كما تُعظم الأعمامُ بعضها بعضاً، حتى منع من ذلك في الصلاة، وأمرهم إذا صلى جالساً أن يُصلُّوا جلوساً، وهم أصحاب لا عُذر لهم، لثلاثا يقوموا على رأسه وهو جالس، مع أن قيامهم لله، فكيف إذا كان القيام تعظيماً وعبودية لِغيره سبحانه.

أمره ﷺ أصحابه إذا صلى جالساً أن يصلوا جلوساً لثلاثا يقوموا على رأسه وهم جالس

والمقصود: أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله سبحانه، وأشركت فيها من تُعظمه من الخلق، فسجدت لِغير الله، وركعت له، وقامت بين يديه قيام الصلاة، وحلفت بغيره، ونذرت لِغيره، وحلقت لِغيره، وذبحت لِغيره، وطافت لِغير بيته، وعظمته بالحب، والخوف، والرجاء، والطاعة، كما يُعظَّم الخالق، بل أشد، وسوّت من تعبده من المخلوقين برَبِّ العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين يَعدِّلون، وهم الذين يقولون — وهم في النار مع آلهتهم يختصمون — : ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّدُكُمْ بِرَبِّ

= بسند حسن، وصححه ابن حبان (١٢٩١) وعن عائشة عند أحمد ٧٦/٦ وابن ماجه (١٨٥٢).

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٢٩) في الاستئذان: باب ما جاء في المصافحة، وابن ماجه (٣٧٠٢) في الأدب: باب المصافحة، وأحمد ١٩٨/٣ عن أنس بن مالك، وفي سنده حنظلة بن عبد الله السدوسي، وهو ضعيف، لكن تابعه شعيب بن الحباب وكثير بن عبد الله والمهلب بن أبي صفرة عند الضياء في «المنتقى» من مسامعته بمرور ٢٣/١ و ٨٧/٢، وابن شاهين في ربايعاته ٧٢/٢ فالحديث حسن كما قال الترمذي رحمه الله.

العَالَمِينَ ﴿ [الشعراء: ٩٨] . وهم الذين قال فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنذَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] ، وهذا كُلُّهُ من الشرك ، والله لا يُغْفِرُ أن يُشْرَكَ به . فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس ، ولعله أهُمُّ مما قصد الكلام فيه ، والله الموفق .

فصل

فصول في هديه ﷺ في العلاج بالأدوية الروحانية الإلهية المفردة ، والمركبة منها ، ومن الأدوية الطبيعية

فصل

في هديه ﷺ في علاج المصاب بالعين

روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ ، لَسَبَقْتُهُ الْعَيْنُ» ^(١) .

وفي «صحيحه» أيضاً عن أنس ، أن النبي ﷺ رَخَّصَ فِي الرُّقِيَةِ مِنَ الْحُمَةِ وَالْعَيْنِ وَالنَّمْلَةِ ^(٢) .

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «الْعَيْنُ حَقٌّ» ^(٣) .

وفي سنن أبي داود « عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان يُؤَمَّرُ الْعَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ » ^(٤) .

-
- (١) أخرجه مسلم (٢١٨٨) في السلام: باب الطب والمرض والرقى .
(٢) أخرجه مسلم (٢١٩٦) في السلام: باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة . والحمة بالتخفيف: السم، ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة، لأن السم يخرج منها . والنملة: قروح تخرج في الجنب .
(٣) أخرجه البخاري ١٧٣/١٠ في الطب: باب العين حق، ومسلم (٢١٨٧) في السلام: باب الطب والمرض والرقى .
(٤) أخرجه أبو داود (٣٨٨٠) في الطب: باب ما جاء في العين، ورجاله ثقات، وإسناده صحيح .

وفي «الصحيحين» عن عائشة قالت: أمرني النبي ﷺ، أو أمر أن نسترقني من العين^(١).

وذكر الترمذي، من حديث سفیان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عروة بن عامر، عن عبيد بن رفاعة الزُرقي، أن أسماء بنت عميس، قالت: يا رسول الله! إن بني جعفر تُصَيِّهُمُ العَيْنُ أفأسترقني لهم؟ فقال: «نَعَمْ فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَضَاءَ لَسَبَقْتَهُ الْعَيْنُ» قال الترمذي: حديث حسن صحيح^(٢).

وروى مالك رحمه الله: عن ابن شهاب، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل، فقال: واللَّهِ ما رأيتُ كاليوم ولا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ! قال: فَلَبِطَ سَهْلٌ، فأتى رسولُ الله ﷺ عامراً، فتغيَّظَ عليه وقال: «عَلَامٌ يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ إِلَّا بَرَكْتَ اغْتَسِلَ لَهُ»، فغسل له عامراً وجهه ويديه، ومرفقيه وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره في قدح، ثم صبَّ عليه، فراح مع الناس^(٣).

وروى مالك رحمه الله أيضاً عن محمد بن أبي أمامة بن سهل، عن أبيه هذا الحديث، وقال فيه: «إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَوَضَّأَ لَهُ» فتوضَّأ له^(٤).

وذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه مرفوعاً «العَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ، لَسَبَقْتَهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلَ أَحَدُكُمْ،

-
- (١) أخرجه البخاري ١٦٩/١٠، ١٧٠ في الطب: باب رقية العين، ومسلم (٢١٩٥) في السلام: باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة.
 - (٢) أخرجه الترمذي (٢٠٥٩) وأحمد ٤٣٨/٦، وابن ماجه (٣٥١٠) وسنده جيد.
 - (٣) أخرجه مالك في «الموطأ» ٩٣٨/٢ في أول كتاب العين، ورجاله ثقات.
 - (٤) أخرجه مالك في «الموطأ» ٩٣٨/٢ وابن ماجه (٣٥٠٩)، وأخرجه أحمد ٤٨٦/٣، ٤٨٧ من طريق الزهري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدثه... ورجاله ثقات وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (١٤٢٤).

فَلْيَغْتَسِلْ^(١) ووصله صحيح .

قال الزهري : يُؤمر الرجل العائن بقَدْح ، فَيُدْخِلُ كَفَّهُ فِيهِ ، فَيَتَمَضَّمُ ، ثُمَّ يَمُجُّهُ فِي الْقَدْحِ ، وَيَغْسِلُ وَجْهَهُ فِي الْقَدْحِ ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ الْيُسْرَى ، فَيُصَبُّ عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُمْنَى فِي الْقَدْحِ ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ الْيُمْنَى ، فَيُصَبُّ عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُسْرَى ، ثُمَّ يَغْسِلُ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ ، وَلَا يُوضَعُ الْقَدْحُ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَى رَأْسِ الرَّجُلِ الَّذِي تُصِيبُهُ الْعَيْنُ مِنْ خَلْفِهِ صَبَّةً وَاحِدَةً^(٢) .

والعين : عينان : عينٌ إنسية ، وعينٌ جنية ، فقد صح عن أم سلمة ، أن النبي ﷺ رأى في بيتها جاريةً في وجهها سفعة ، فقال : «اسْتَرْقُوا لَهَا ، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ»^(٣) .

قال الحسين بن مسعود القراء : وقوله : «سفعة» . أي نظرة ، يعني : من الجن ، يقول : بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرِّمَاحِ^(٤) .

ويُذكر عن جابر يرفعه : «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ ، وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ»^(٥) .

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٧٧٠) وإسناده صحيح لكنه مرسل ، وقد وصله مسلم في «صحيحه» (٢١٨٨) من طريق وهيب عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن ابن عباس . . .

(٢) ذكره البيهقي في «السنن» ٣٥٢/٩ عقب حديث سهل .

(٣) أخرجه البخاري ١٧١/١٠ ، ١٧٢ في الطب : باب رقية العين ، ومسلم (٢١٩٧) في السلام : باب رقية العين ، والسفعة — بفتح السين ويجوز ضمها وسكون الفاء — سواد في الوجه ، ومنه سفعة الفرس : سواد ناصيته ، وعن الأصمعي : حمرة يعلوها سواد ، وقيل : صفرة ، وقيل : سواد مع لون آخر ، وقال ابن قتيبة : لون يخالف لون الوجه ، وكلها متقاربة .

(٤) انظر «شرح السنة» ١٦٣/١٣ بتحقيقنا .

(٥) حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٩٠/٧ وابن عدي والخطيب في «تاريخه» ٢٤٤/٩ من حديث جابر بن عبد الله بلفظ «العين تدخل الرجل القبر» =

وعن أبي سعيد، أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجان، ومن عين الإنسان^(١).

قول من أبطل الإصابة
بالعين

فأبطلت طائفة ممن قلَّ نصيبهم من السمع والعقل أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة له، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجاباً، وأكثرهم طباعاً، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس. وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين، ولا تنكره، وإن اختلفوا في سببه وجهة تأثير العين.

فقالت طائفة: إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة، انبعث من عينه قوة سُمّية تتصل بالمعين، فيتضرر. قالوا: ولا يُستنكر هذا، كما لا يُستنكر انبعث قوة سُمّية من الأفعى تتصل بالإنسان، فهلك، وهذا أمر قد اشتبه عن نوع من الأفاعي أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك، فكذلك العائن.

وقالت فرقة أخرى: لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية، فتتصل بالمعين، وتتخلل مسام جسمه، فيحصل له الضرر.

وقالت فرقة أخرى: قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً، وهذا مذهب منكري الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم، وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العِلل والتأثيرات والأسباب، وخالفوا العقلاء أجمعين.

الرد على من أنكر الإصابة
بالعين

ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة،

وتدخل الجمل القدر» وقد تفرد به شعيب بن أيوب عن معاوية، عن هشام... قال الصابوني: وبلغني أنه قيل له: ينبغي أن تمسك عن هذه الرواية ففعل. وقال الذهبي في «الميزان» في ترجمة شعيب بن أيوب: وله حديث منكر ذكره الخطيب في «تاريخه» يريد هذا الحديث.

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥٩) والنسائي ٢٧١/٨، وابن ماجه (٣٥١١) وحسنه الترمذي، وتماهه: فلما نزلت الموعودتان، أخذ بهما وترك ماسوى ذلك.

وجعل في كثير منها خواصَّ وكيفيات مؤثرة، ولا يُمكن لعاقِل إنكارُ تأثيرِ الأرواح في الأجسام، فإنه أمرٌ مشاهدٌ محسوسٌ، وأنت ترى الوجةَ كيف يحمرُّ حُمْرَةً شديدة إذا نظر إليه من يحتشمُه ويستحي منه، ويصفُرُ صُفْرَةً شديدة عند نظر من يخافُه إليه، وقد شاهد الناسُ من يسقم من النظر وتضعف قواه، وهذا كُلُّه بواسطة تأثير الأرواح، ولشدة ارتباطها بالعين يُنسب الفعل إليها، وليست هي الفاعلة، وإنما التأثيرُ للروح، والأرواحُ مختلفةٌ في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فروحُ الحاسد مؤذيةٌ للمحسود أذىً بيّناً، ولهذا أمر الله - سبحانه - رسوله أن يستعيذَ به من شره، وتأثيرُ الحاسد في أذى المحسود أمرٌ لا يُنكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصابة بالعين، فإنَّ النفس الخبيثة الحاسدة تتكيّف بكيفية خبيثة، وتُقابلُ المحسود، فتؤثّرُ فيه بتلك الخاصية، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى، فإن السم كامنٌ فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها، انبعثت منها قوة غضبية، وتكيّفت بكيفية خبيثة مؤذية، فمنها ما تستدُّ كفيئتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين، ومنها ما تُؤثر في طمس البصر، كما قال النبي ﷺ في الأبر، وذِي الطُفَيْتَيْنِ مِنَ الْحَيَاتِ: «إِنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ، وَيُسْقِطَانِ الْحَبْلَ»^(١).

ومنها، ما تُؤثر في الإنسان كفيئتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به، لشدة حُبِّ تلك النفس، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة، والتأثيرُ غيرُ موقوف على الاتصالات الجسمية، كما يظنُّه من قلَّ علمُه ومعرفته بالطبيعة والشريعة، بل التأثيرُ يكون تارةً بالاتصال، وتارةً بالمقابلة، وتارةً بالرؤية، وتارةً بتوجه الروح نحو من يُؤثر فيه، وتارةً بالأدعية والرقى والتعوذات، وتارةً بالوهم والتخيل، ونفس العائن لا يتوقفُ

(١) أخرجه البخاري ٢٤٨/٦ في بدء الخلق: باب قول الله تعالى (وبث فيها من كل دابة)، ومسلم (٢٢٣٣) في السلام: باب قتل الحيات وغيرها، من حديث ابن عمر، والطُّفَيْتَانِ: هما الخيطان الأبيضان على ظهر الحية، والأبر: قصير الذنب، وقوله: يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ، قال الخطابي: فيه تأويلان، أحدهما: معناه يخطفان البصر ويطمسانه بمجرد نظرهما إليه بخاصة جعلها الله تعالى في بصريهما إذا وقع على بصر الإنسان، والثاني: أنهما يقصدان البصر باللسع والنهش، والأول أصح وأشهر.

تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيُوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه، وإن لم يره، وكثير من العائنين يُؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالى لنيه: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١]. وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْمَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، فكل عائن حاسد، وليس كل حاسد عائناً، فلما كان الحاسد أعم من العائن، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تُصيبه تارة وتُخطئه تارة، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه، أثرت فيه، ولا بُد، وإن صادفته حذراً شاكي السلاح لا متفد فيه للسهام، لم تؤثر فيه، وربما رُدَّت السهام على صاحبها، وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء، فهذا من النفوس والأرواح، وذلك من الأجسام والأشباح. وأصله من إعجاب العائن بالشيء، ثم تبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين، وقد يعين الرجل نفسه، وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه: وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عرف بذلك، حبه الإمام، وأجرى له ما يُنفق عليه إلى الموت، وهذا هو الصواب قطعاً.

الحاسد أعم من العائن

فصل

والمقصود: العلاج النبوي لهذه العلة، وهو أنواع، وقد روى أبو داود في «سننه» عن سهل بن حنيف، قال: سررنا بسيل، فدخلت، فاغتسلت فيه، فخرجت محموماً، فَنَمِيْ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال: «مُرُوا أَبَا ثَابِتٍ يَتَعَوَّذُ»، قال: فقلت: يا سيدي! والرقى صالححة؟ فقال: «لَا رُقِيَةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ، أَوْ حَمَةِ أَوْ لَدَعَةٍ»^(١).

علاج المعين بالتعوذات والرقى

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٨) في الطب: باب ما جاء في الرقى، وفي سننه رباب جدة عثمان بن حكيم، لم يوثقها غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات.

والنفس: العين، يقال: أصابت فلاناً نفس، أي: عين. والنافس: العائن.
واللدغة — بديل مهملة وغين معجمة — وهي ضربة العقرب ونحوها.

عبارات من التعوذات
النسوية

فمن التعوذاتِ والرقى الإكثارُ مِنْ قراءةِ المعوذتين، وفاتحةِ الكتابِ، وآيةِ
الكرسي، ومنها التعوذاتُ النبوية.
نحو: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ.

ونحو: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ.

ونحو: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ
مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ
مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، وَمِنْ
شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنَ.

ومنها: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ
هَمْزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ.

ومنها: اللَّهُمَّ أَنْي أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَكَلِمَاتِكَ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا أَنْتَ
أَخَذَ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ تَكْشِفُ الْمَأْثَمَ وَالْمَغْرَمَ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يُهْزَمُ جُنْدُكَ، وَلَا
يُخَلَّفُ وَعَدْلُكَ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ.

ومنها: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَبِكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ
الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، وَأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِي، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ،
مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ لَا أُطِيقُ شَرَّهُ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ
أَنْتَ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهِ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

ومنها: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، أَعْلَمُ أَنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ

عدداً، اللهم إني أعودُ بك من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطانِ وشرِّكهِ، ومن شرِّ كُلِّ دابة أنت آخذٌ بناصيتها، إن ربِّي على صراطٍ مستقيم.

وإن شاء قال: تحصنتُ بالله الَّذي لا إله إلا هو، إلهي وإله كل شيء، واعتصمتُ بربي وربِّ كُلِّ شيء، وتوكلتُ على الحيِّ الَّذي لا يموتُ، واستدفعتُ الشرَّ بلا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الربُّ من العباد، حسبي الخالقُ من المخلوق، حسبي الرازقُ من المرزوق، حسبي الَّذي هو حسبي، حسبي الَّذي بيده ملكوتُ كُلِّ شيء، وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه، حسبي اللُّهُ وكَفَى، سَمِعَ اللهُ لمن دعا، ليس وراءَ اللُّهِ مرمى، حسبي اللهُ لا إله إلا هو، عليه توكلتُ، وهو ربُّ العرشِ العظيم.

ومن جرَّبَ هذه الدعواتِ والعودُ، عَرَفَ مقدارَ منفعتها، وشِدَّةَ الحاجةِ إليها، وهي تمنعُ وصولَ أثرِ العائن، وتدفعُه بعد وصوله بحسبِ قوةِ إيمانِ قائلها، وقوةِ نفسه، واستعداده، وقوةِ توكله وثباتِ قلبه، فإنها سلاح، والسلاحُ بضاربه.

فصل

وإذا كان العائنُ يخشى ضرراً عينه وإصابتها للمعين، فليدفع شرَّها بقوله: اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ، كما قال النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: «ألا برَّكت» أي: قلت: اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ.

ما يقوله العائن خشية من ضرر عينه

ومما يدفع به إصابة العين قول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، روى هشام بن عروة، عن أبيه، أنه كان إذا رأى شيئاً يُعجبه، أو دخل حائطاً من حيطانه، قال: ما شاء الله، لا قُوَّةَ إلا بالله.

ومنها رُقِيَة جبريل عليه السَّلَام للنبي ﷺ التي رواها مسلم في

الرُقِيَة للمعين

«صحيحه» بِاسْمِ اللَّهِ أَزْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَزْقِيكَ»^(١).

ورأى جماعة من السلف أن تُكْتَبَ له الآياتُ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ يَشْرِبُهَا. قَالَ كِتَابَةُ آيَاتِ نَمِ شَرِبَهَا مُجَاهِدٌ: لَا بَأْسَ أَنْ يَكْتُبَ الْقُرْآنَ، وَيَغْسِلَهُ، وَيَسْقِيَهُ الْمَرِيضَ، وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي قَلَابَةَ. وَيُذَكَّرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ لِمَرْأَةٍ تَعَسَّرَ عَلَيْهَا وَلَا ذُهَا أَثْرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ يُغْسَلُ وَتُسْقَى. وَقَالَ أَيُّوبُ: رَأَيْتُ أَبَا قَلَابَةَ كَتَبَ كِتَابًا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءٍ، وَسَقَاهُ رَجُلًا كَانَ بِهِ وَجَعٌ.

فصل

ومنها: أَنْ يُؤْمَرَ الْعَائِنُ بِغَسْلِ مَغَايِنِهِ وَأَطْرَافِهِ وَدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، وَفِيهِ قَوْلَانِ. اسْتِغْسَالُ الْعَائِنِ لِلْمَعِينِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ فَرَجُهُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ طَرَفُ إِزَارِهِ الدَّاخِلِ الَّذِي يَلِي جِسَدَهُ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَى رَأْسِ الْمَعِينِ مِنْ خَلْفِهِ بَغْتَةً، وَهَذَا مِمَّا لَا يَنَالُهُ عِلَاجُ الْأَطْبَاءِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ أَنْكَرَهُ، أَوْ سَخِرَ مِنْهُ، أَوْ شَكَّ فِيهِ، أَوْ فَعَلَهُ مَجْرِبًا لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ.

الرد على من أنكره من الأطباء

وَإِذَا كَانَ فِي الطَّبِيعَةِ خَوَاصٌّ لَا تَعْرِفُ الْأَطْبَاءُ عِلَلَهَا أَلْبَتَةَ، بَلْ هِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ قِيَاسِ الطَّبِيعَةِ تَفْعَلُ بِالْخَاصِّيَّةِ، فَمَا الَّذِي يُنْكَرُهُ زِنَادِقَتُهُمْ وَجَهْلَتُهُمْ مِنَ الْخَوَاصِّ الشَّرْعِيَّةِ، هَذَا مَعَ أَنَّ فِي الْمَعَالِجَةِ بِهَذَا اسْتِغْسَالُ مَا تَشْهَدُ لَهُ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ، وَتُقَرَّرُ لِمُنَاسِبَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ تَرِيَاقَ سَمِّ الْحَيَّةِ فِي لِحْمِهَا، وَأَنَّ عِلَاجَ تَأْثِيرِ النَّفْسِ الْغَضَبِيَّةِ فِي تَسْكِينِ غَضَبِهَا، وَإِطْفَاءِ نَارِهِ بِوَضْعِ يَدِكَ عَلَيْهِ، وَالْمَسْحَ عَلَيْهِ، وَتَسْكِينِ غَضَبِهِ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مَعَ شُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ، وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَقْدِفَكَ بِهَا، فَصَبَبَتْ عَلَيْهَا الْمَاءَ، وَهِيَ فِي يَدِهِ حَتَّى طُفِئَتْ، وَلِذَلِكَ أَمَرَ الْعَائِنُ أَنْ يَقُولَ:

حكمة الاستغسال

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٥) في السلام: باب الطب والمرض والرقى.

«اللهم بَارِكْ عَلَيْهِ» ليدفع تلك الكيفية الخبيثة بالدعاء الذي هو إحسانٌ إلى المعين، فإن دواء الشيء بِضِدِّهِ. ولما كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر في المواضع الرقيقة من الجسد، لأنها تطلبُ النفوذَ، فلا تجد أرقَّ من المغابن، وداخلَةَ الأزار، ولا سيما إن كان كناية عن الفرج، فإذا غُسِلَتْ بالماء، بطل تأثيرها وعملها، وأيضاً فهذه المواضع للأرواح الشيطانية بها اختصاص.

والمقصود: أن غسلها بالماء يُطْفِئ تلك النارية، ويذهب بتلك السُّمية.

وفيه أمر آخر، وهو وُصول أثرِ الغسل إلى القلب من أرقِّ المواضع وأسرعها تنفيذاً، فيُطْفِئ تلك النارية والسُّمية بالماء، فيشفي المعين، وهذا كما أن ذوات السموم إذا قتلت بعد لسعها، خَفَّ أثرُ اللسعة عن الملسوع، ووجد راحة، فإن أنفَسَهَا تمُدُّ أذاها بعد لسعها، وتُوصِلُهُ إلى الملسوع. فإذا قُتِلَتْ، خَفَّ الألم، وهذا مشاهد. وإن كان من أسبابه فرحُ الملسوع، واشتفاء نفسه بقتل عدوِّه، فتقوى الطبيعة على الألم، فتدفعه.

وبالجملة: غسل العائن يُذهب تلك الكيفية التي ظهرت منه، وإنما ينفع غسلُه عند تكَيُّفِ نفسه بتلك الكيفية.

فإن قيل: فقد ظهرت مناسبة الغسل، فما مناسبة صبِّ ذلك الماء على المعين؟ قيل: هو في غاية المناسبة، فإن ذلك الماء ماء طُفِيَ به تلك النارية، وأبطل تلك الكيفية الرديئة من الفاعل، فكما طُفئت به النارية القائمة بالفاعل طُفئت به، وأبطلت عن المحل المتأثر بعد ملابسته للمؤثر العائن، والماء الذي يُطْفَأُ به الحديدُ يدخلُ في أدوية عدَّة طبيعية ذكرها الأطباء، فهذا الذي طُفِيَ به نارية العائن، لا يُستنكر أن يدخل في دواء يناسب هذا الداء. وبالجملة: فطب الطبائعية وعلاجهم بالنسبة إلى العلاج النبوي، كطب الطُّرُقِية بالنسبة إلى طبهم، بل أقل، فإن التفاوت الذي بينهم وبين الأنبياء أعظم، وأعظم من التفاوت الذي بينهم وبين الطُّرُقِية بما لا يُدرِكُ الإنسان مقدراته، فقد ظهر لك عقدُ الإخاء الذي

حكمة صبِّ ماء
الاستغسال على المعين.

بين الحكمة والشرع، وعدم مناقضة أحدهما للآخر، والله يهدي من يشاء إلى الصواب، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب، وله النعمة السابعة، والحجة البالغة.

فصل

للاحتراز من الإصابة
بالعين ستر محاسن من
يخاف عليه العين

ومن علاج ذلك أيضاً والاحتراز منه ستر محاسن من يخاف عليه العين بما يردّها عنه، كما ذكر البغوي في كتاب «شرح السنة»: أن عثمان رضي الله عنه رأى صبياً مليحاً، فقال: دَسَّمُوا نُونَتَهُ، لِئَلَّا تُصِيبَهُ الْعَيْنُ، ثم قال في تفسيره: ومعنى: دَسَّمُوا نُونَتَهُ: أي: سوّدُوا نُونَتَهُ، والنونة: الثُقرة التي تكون في ذقن الصبي الصغير^(١).

وقال الخطابي في «غريب الحديث» له عن عثمان: إنه رأى صبياً تأخذه العين، فقال: دَسَّمُوا نُونَتَهُ. فقال أبو عمرو: سألت أحمد بن يحيى عنه، فقال: أراد بالنونة: الثُقرة التي في ذقنه. والتدسيم: التسويد. أراد: سوّدُوا ذلك الموضوع من ذقنه، ليرد العين. قال: ومن هذا حديث عائشة أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم، وعلى رأسه عمامة دَسَمَاء^(٢). أي: سوداء. أراد الاستشهاد على اللفظة، ومن هذا أخذ الشاعر قوله:

(١) انظر «شرح السنة» ١١٦/١٣ بتحقيقنا.

(٢) لم نر الحديث من مسند عائشة كما نقل المصنف عن الخطابي، فقد أخرجه البخاري ٩٢/٧ في مناقب الأنصار من حديث ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفه متعطفاً على منكبيه، وعليه عصابة دسما حتى جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد أيها الناس، فإن الناس يكثرُونَ وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه، فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم» وأخرج مسلم (١٣٥٨) عن جابر قال: «دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، وعليه عمامة سوداء» وهو في «سنن أبي داود» (٤٠٧٦) والترمذي (١٧٣٥) والنسائي ٢٠٠/٥، ٢٠١، وابن ماجه (٣٥٨٥) و (٢٨٢٢) وأخرج مسلم (١٣٥٩) وأبو داود (٤٠٧٧) والنسائي ٢١٢/٨، وابن ماجه (٢٢٨١) من حديث عمرو بن حُرَيْث قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر، وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه.

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى عَيْبِ يُوقِيهِ مِنَ الْعَيْنِ

فصل

ومن الرُّقى التي تُرَدُّ العين ما ذكر عن أبي عبد الله السَّاجي، أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فَارِهَة، وكان في الرفقة رجل عائن، فلَمَّا نظر إلى شيء إلا أتلفه، فقبل لأبي عبد الله: احْفَظْ نَاقَتَكَ مِنَ الْعَائِنِ، فقال: ليس له إلى ناقتي سبيل، فَأُخْبِرَ الْعَائِنُ بِقَوْلِهِ، فَتَحَيَّنَ غِيْبَةَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَجَاءَ إِلَى رَحْلِهِ، فَنَظَرَ إِلَى النَّاقَةِ، فَاضْطَرَبَتْ وَسَطَطَتْ، فَجَاءَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، فَأُخْبِرَ أَنَّ الْعَائِنَ قَدْ عَانَهَا، وَهِيَ كَمَا تَرَى، فقال: دَلُّونِي عَلَيْهِ، فَدُلَّ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، حَبَسْتُ حَابِسٌ، وَحَجَّرْتُ يَابِسٌ، وَشِهَابٌ قَابِسٌ، رَدَدْتُ عَيْنَ الْعَائِنِ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] فخرجت حدقتا العائن، وقامت الناقة لا بأس بها.

ذكر رقية ترد العين

فصل

في هديه ﷺ في العلاج العام لكل

شكوى بالرقية الإلهية

روى أبو داود في «سننه»: من حديث أبي الدرداء، قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوْ اشْتَكَاهُ أَحٌ لَهُ فَلْيَقُلْ: رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحِمْتَكُ فِي السَّمَاءِ، فَاجْعَلْ رَحِمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، وَاغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحِمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَيَّ هَذَا الْوَجَعُ، فَيَبْرَأُ بِأَذْنِ اللَّهِ»^(١).

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢) في الطب: باب كيف الرقى، وفي سننه زياد بن محمد وهو منكر الحديث، وياقي رجاله ثقات، ورواه أحمد ٢١/٦ من طريق آخر، وفي سننه أبو بكر بن أبي مريم الغساني الشامي، وهو ضعيف، وقال الدارقطني: =

وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد الخدري، أن جبريلَ - عليه السلام - أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا محمد! أشتكيت؟ فقال: «نعم»، فقال جبريلُ - عليه السلام - : «باسمِ اللَّهِ أَرَقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرَقِيكَ»^(١).

فإن قيل: فما تقولون في الحديث الذي رواه أبو داود: «لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حَمَّةٍ»، والحممة: ذوات السموم كلها.

فالجواب أنه ﷺ لم يُرَدِّ به نفي جواز الرُقِيَةِ في غيرها، بل المرادُ به: لا التوفيق بين جواز الرُقِيَةِ لكل شكوى وبين: «لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حَمَّةٍ»^(٢).
 حديث أنس قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حَمَّةٍ أَوْ دَمٍ يَزْتَأُ»^(٣).

وفي «صحيح مسلم» عنه أيضاً: رَخَّصَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في الرُقِيَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحَمَّةِ وَالنَّمْلَةِ^(٣).

= متروك، وقال ابن عدي: الغالب على حديثه الغرائب، وقلما يوافق الثقات.

- (١) أخرجه مسلم (٢١٨٦) في السلام: باب الطب والمرض والرقى.
- (٢) أخرجه أبو داود (٣٨٨٩) وفي سننه شريك القاضي وهو سبىء الحفظ، وباقي رجاله ثقات، وأخرج مسلم (٢٢٠) عن بريدة بن الحصيب قوله: «لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حَمَّةٍ» وأخرجه ابن ماجه (٣٥١٣) مرفوعاً، وسنده ضعيف، وفي الباب عن عمران بن الحصين عند أحمد، وأبي داود (٣٨٨٤) والترمذي (٢٠٥٨) بلفظ «لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حَمَّةٍ» وإسناده صحيح.
- (٣) تقدم تخريجه ص ١٤٩.

فصل

في هديه ﷺ في رقية اللديع بالفاتحة

أخرجنا في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري، قال: انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيئوهم، فلُدغَ سيّد ذلك الحي، فسَعَوْا له بكلِّ شيءٍ لا يَنفَعُه شيءٌ، فقال بعضهم: لو أتيتُم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شيءٌ، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط! إن سيّدنا لُدغَ، وسَعينا له بكلِّ شيءٍ لا يَنفَعُه، فهل عند أحدٍ منكم من شيءٍ؟ فقال بعضهم: نعم والله إنني لأرقي، ولكن استصَفْنَاكُمْ، فلم تُضيئُونَا، فما أنا بِرَاقٍ حتى تَجْعَلُوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قَطيعٍ من الغنم، فانطلق يَنفُلُ عليه، ويقرأ: الحمدُ لله ربِّ العالمين، فكانما أنشَطَ مِنْ عِقَالٍ، فانطلق يمشي وما به قَلْبَةٌ، قال: فأَوْفَوْهُم جُعْلَهُم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسمُوا، فقال الذي رَقِيَ: لا تفعلوا حتى نأتي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فنذكرُ له الذي كان، فننظرُ ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال: «وما يُدريك أنّها رُقِيَةٌ؟»، ثم قال: «قد أصببتم، اقسِمُوا واضربوا لي معكم سهماً»^(١).

وقد روى ابن ماجه في «سننه» من حديث علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الدَّوَاءِ الْقُرْآنُ»^(٢).

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواصٌّ ومنافعٌ مجربة، فما الظنُّ بكلام ربِّ العالمين، الذي فَضَّلَهُ على كلِّ كلامٍ كفضلِ الله على خلقه الذي هو الشفاء

فائدة الرقية بالقرآن
وبخاصة فاتحة الكتاب

(١) أخرجه البخاري ١٧٨/١٠ في الطب: باب النفث في الرقية، ومسلم (٢٢٠١) في

السلام: باب جواز أخذ الأجرة على الرقية.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٥٠١) في الطب: باب الاستشفاء بالقرآن، وفي سننه الحارث الأعور، وهو ضعيف.

النام، والعِصمة النافعة، والنور الهادي، والرحمة العامة، الذي لو أنزل على جبل لتصدَّع من عظمته وجلالته. قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و«من» ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، هذا أصحُّ القولين، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] وكلُّهم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فما الظنُّ بفاتحة الكتاب التي لم يُنزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلاً، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب - تعالى - ومجامعها، وهي الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وذكر الافتقار إلى الربِّ سبحانه في طلب الإعانة وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفضله، وما العبادُ أحوج شيء إليه، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته - بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى مُنعمٍ عليه بمعرفة الحق، والعمل به، ومحبته، وإيثاره، ومغضوبٍ عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، وضالٍ بعدم معرفته له. وهؤلاء أقسامُ الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر، والشرع، والأسماء، والصفات، والمعاد، والنبوات، وتزكية النفوس، وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير «مدارج السالكين» في شرحها. وحقيقٌ بسورة هذا بعضُ شأنها، أن يُستشفى بها من الأدواء، ويُرقى بها اللدبغ.

وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كُلِّه إليه، والاستعانة به، والتوكُّل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلبُ النعم، وتدفعُ النَّقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية.

وقد قيل: إن موضع الرُّقية منها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى الغايات، وهي عبادةُ الربِّ وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانةُ به على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد مرَّ بي وقت بمكة سَقِمْتُ فيه، وفَقَدْتُ الطيبَ والدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربةً من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مراراً، ثم أشربه، فوجدتُ بذلك البرءَ التام، ثم صِرتُ أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع.

قراءة المصنف الفاتحة
على ماء زمزم وذلك عند
سقمه في مكة

فصل

وفي تأثير الرُّقى بالفاتحة وغيرها في علاج ذواتِ السُّمومِ سرٍ بديع، فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسها الخبيثة، كما تقدم، وسلاحها حُماتها التي تلدغُ بها، وهي لا تلدغ حتى تغضب، فإذا غضبت، ثار فيها السُّمُّ، فتقذفه بآلتها، وقد جعل اللهُ سبحانه لكل داءٍ دواءً، ولكل شيءٍ ضِدًّا، ونفس الراقي تفعلُ في نفس المرقي، فيقعُ بين نفسيهما فعل وانفعال، كما يقع بين الداء، والدواء، فتقوى نفسُ الراقي وقوته بالرُّقية على ذلك الداء، فيدفعه بإذن اللهِ، ومدارُ تأثير الأدوية والأدواء على الفعل والانفعال، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين، يقع بين الداء والدواء الروحانيين، والروحاني، والطبيعي، وفي النفس والتقل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشرة للرُّقية، والذكر والدعاء، فإن الرُّقية تخرج من قلب الراقي وفمه، فإذا صاحبها شيءٌ من أجزاء باطنه من الريق والهواء والنفس، كانت أتمَّ تأثيراً، وأقوى فعلاً ونفوذاً، ويحصل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية.

انفتحت له تأثير في دفع
المرض

وبالجملة: فنفس الراقي تُقابل تلك النفوس الخبيثة، وتزيدُ بكيفية نفسه،

وتستعين بالرقية وبالنفث على إزالة ذلك الأثر، وكلما كانت كيفية نفس الراقي أقوى، كانت الرقية أتم، واستعانت بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها.

وفي النفث سر آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة، ولهذا تفعله السحرة كما يفعله أهل الإيمان. قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، وذلك لأن النفس تتكيف بكيفية الغضب والمحاربة، وترسل أنفاسها سهاماً لها، وتمدّها بالنفث والتفل الذي معه شيء من الرّيق مصاحب لكيفية مؤثرة، والسواحر تستعين بالنفث استعانةً بينة، وإن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفث على العقدة وتعقدّها، وتتكلم بالسحر، فيعمل ذلك في المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة، فتقابلها الروح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرقية، وتستعين بالنفث، فأيهما قوي كان الحكم له، ومقابلة الأرواح بعضها لبعض، ومحاربتها وآلتها من جنس مقابلة الأجسام، ومحاربتها وآلتها سواء، بل الأصل في المحاربة والتقابل للأرواح والأجسام آلتها وجندها، ولكن من غلب عليه الحس لا يشعر بتأثيرات الأرواح وأفعالها وانفعالاتها لاستيلاء سلطان الحس عليه، وبُعده من عالم الأرواح، وأحكامها، وأفعالها.

والمقصود: أن الروح إذا كانت قوية وتكيفت بمعاني الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفل، قابلت ذلك الأثر الذي حصل من النفوس الخبيثة، فأزائته والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج لدغة العقرب بالرقية

روى ابن أبي شيبة في «مسنده»، من حديث عبد الله بن مسعود، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي، إذ سجد فلدغته عقرب في أصبعه، فانصرف رسول الله ﷺ وقال: «لَعَنَ اللَّهُ الْعَقْرَبَ مَا تَدْعُ نَبِيًّا وَلَا غَيْرَهُ»، قال: ثم دعا بإناء فيه ماء وملح،

فجعل يَضَعُ موضع اللدغة في الماء والملح، ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾،
والمعوذتين حتى سَكَتَ^(١).

ففي هذا الحديث العلاج بالدواء المركب من الأمرين: الطبيعي والإلهي،
فإن في سورة الإخلاص من كمال التوحيد العلمي الاعتقادي، وإثبات
الأحدية لله، المستلزمة نفي كل شركة عنه، وإثبات الصمدية المستلزمة لإثبات
كل كمال له مع كون الخلائق تصمداً إليه في حوائجها، أي: تقصده الخليفة،
وتوجه إليه، علوؤها وسفليتها، ونفي الوالد والولد، والكف عنه المتضمن لنفي
الأصل، والفرع والنظير، والمماثل مما اختصت به وصارت تعدل تلك القرآن،
ففي اسمه الصمد إثبات كل الكمال، وفي نفي الكف التزويه عن الشبيه والمثال.
وفي الأحد نفي كل شريك لذي الجلال، وهذه الأصول الثلاثة هي مجامع
التوحيد.

ما لسورة الإخلاص من
الفائدة في علاج اللدغة

وفي المعوذتين الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً، فإن الاستعاذة من
شر ما خلق نَعَمُ كُلُّ شَرٍ يُسْتَعَاذُ مِنْهُ، سواء كان في الأجسام أو الأرواح،
والاستعاذة من شر الغاسق وهو الليل، وآيته وهو القمر إذا غاب، تتضمن
الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نور النهار يحول بينها
وبين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر، انتشرت وعانت.

ما للمعوذتين من الفائدة
في علاج اللدغة

والاستعاذة من شر النفاثات في العُقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر
وسحرهن.

والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية
بحسدها ونظرها.

والسورة الثانية: تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، فقد

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٥) في ثواب القرآن: باب ما جاء في المعوذتين، وفي سننه
ابن لهيعة، وهو سيء الحفظ.

جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر، ولهما شأنٌ عظيم في الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها، ولهذا أوصى النبي ﷺ عقبه بن عامر بقراءتهما عَقِبَ كُلِّ صَلَاةٍ، ذكره الترمذي في «جامعه»^(١) وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة. وقال: ما تَعَوَّذَ المتعوذون بمثلهما. وقد ذكر أنه ﷺ سحر في إحدى عشرة عَقْدَةً، وأن جبريل نزل عليه بهما، فجعل كُلَّمَا قرأ آية منهما انحلَّت عَقْدَةً، حتى انحلت العقد كُلُّهَا، وكأنما أنشَطَ من عِقَالٍ.

الفائدة في الملح في علاج اللدغة

وأما العلاج الطبيعي فيه، فإن في الملح نفعاً لكثير من السُّموم، ولا سيما لدغة العقرب، قال صاحب «القانون»: يُضْمَدُ به مع بزر الكتان للسع العقرب، وذكره غيره أيضاً. وفي الملح من القوة الجاذبة المحللة ما يَجْذِبُ السموم ويحللها، ولما كان في لسعها قوة نارية تحتاج إلى تبريد وجذب وإخراج جمع بين الماء المبرد لنار اللسعة، والملح الذي فيه جذب وإخراج، وهذا أتم ما يكون من العلاج وأيسره وأسهله، وفيه تنبيه على أن علاج هذا الداء بالتبريد والجذب والإخراج والله أعلم.

وقد روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما لقيتُ من عقرب لدغتنِي البارحة فقال: «أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ»^(٢).

واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله، وتمنع من وقوعه، وإن وقع لم يقع وقوعاً مضرراً، وإن كان مؤذياً، والأدوية الطبيعية إنما تنفع، بعد حصول الداء، فالتعوذات والأذكار، إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه، فالرُّقَى

(١) أخرجه أحمد ٤/١٥٥، والترمذي (٢٩٠٥) وأبو داود (١٥٢٣) والنسائي ٣/٦٨ من

طرق عن علي بن رباح اللخمي، عن عقبه بن عامر... وسنده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٩) في السلام: باب الذكر والدعاء.

وَالْعُودُ تُسْتَعْمَلُ لِحِفْظِ الصَّحَّةِ، وَإِلْزَالَةِ الْمَرَضِ، أَمَا الْأَوَّلُ: فَكَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَفَثَ فِي كَفْيِهِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوَّذَتَيْنِ. ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، وَمَا بَلَغَتْ يَدُهُ مِنْ جَسَدِهِ^(١).

وَكَمَا فِي حَدِيثِ عُودَةَ أَبِي الدَّرْدَاءِ الْمَرْفُوعِ «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ عَلَيَّكَ تَوَكَّلْتُ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ: مَنْ قَالَهَا أَوَّلَ نَهَارِهِ لَمْ تُصِبهُ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَالَهَا آخِرَ نَهَارِهِ لَمْ تُصِبهُ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُصْبِحَ^(٢).

وَكَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ»^(٣).

وَكَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»^(٤).

وَكَمَا فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي السَّفَرِ يَقُولُ بِاللَّيْلِ: «يَا أَرْضُ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ وَشَرِّ مَا فِيكَ، وَشَرِّ مَا يَدُبُّ عَلَيْكَ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ، وَمِنَ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ، وَمِنَ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنَ الْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ»^(٥).

-
- (١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ١٠٧/١١ فِي الدَّعَوَاتِ: بَابُ التَّعْوِذِ وَالْقِرَاءَةِ عِنْدَ النَّوْمِ، وَمُسْلِمٌ (٢١٩٢) فِي السَّلَامِ: بَابُ رَقِيَّةِ الْمَرِيضِ بِالْمُعَوَّذَاتِ.
 - (٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ السَّنِيِّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» ص ٢٠، ٢١، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، ثُمَّ رَوَاهُ بِنَحْوِهِ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ ضَعِيفٌ، وَنَسَبَهُ الْمِرَاقِي فِي تَخْرِيجِهِ إِلَى الطَّبْرَانِيِّ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ.
 - (٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٥٠/٩ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ: بَابُ فَضْلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَمُسْلِمٌ (٨٠٨) فِي الْمَسَافِرِينَ: بَابُ فَضْلِ الْفَاتِحَةِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.
 - (٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٨) فِي الذِّكْرِ وَالِدُعَاءِ: بَابُ التَّعْوِذِ مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ.
 - (٥) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٢٦٠٣) وَأَحْمَدُ ١٣٢/٢، وَفِي سَنَدِهِ الزُّبَيْرِيُّ بْنُ الْوَلِيدِ الشَّامِيُّ =

وأما الثاني: فكما تقدّم من الرقية بالفاتحة، والرقية للعقرب وغيرها مما يأتي.

فصل

في هديه ﷺ في رقية النملة

قد تقدّم من حديث أنس الذي في «صحيح مسلم» أنه ﷺ رخص في الرقية من الحُمّة والعَيْنِ والنَّمْلَةِ.

وفي «سنن أبي داود» عن الشفاء بنت عبد الله، دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة، فقال: «ألا تعلّمين هذه رقية النملة كما علّمتهَا الكِتَابَةَ»^(١).

النملة: قروح تخرج في الجنين، وهو داء معروف، وسمي نملة، لأن صاحبه يُحس في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضّه، وأصنافها ثلاثة، قال ابن قتيبة وغيره: كان المجوس يزعمون أن ولد الرجل من أخته إذا خُطَّ على النملة، شفى صاحبها، ومنه قول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ عُرْفٍ لِمَعْشَرٍ كِرَامٍ وَأَنَا لَا نَخْطُ عَلَى التَّمَلِ^(٢)

وروى الخلال: أن الشفاء بنت عبد الله كانت ترقى في الجاهلية من النملة، فلما هاجرت إلى النبي ﷺ وكانت قد بايعته بمكة، قالت: يا رسول الله! إني كنت أرقى في الجاهلية من النملة، وإني أريد أن أعرضها عليك، فعرضت عليه فقالت: بسم الله صلّت حتى تعود من أفواهاها، ولا تضرب أحداً، اللهم اكشف البأس ربّ الناس، قال: ترقى بها على عود سبع مرات، وتقصد مكاناً نظيفاً،

= لم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات.

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٧) وأحمد ٦/٣٧٢، وإسناده صحيح.

(٢) رواية البيت في «اللسان»: نمل: ولا عيب فينا غير نسل لمعشر.

وتدلكهُ على حجر بخلِ خمرٍ حاذق، وتظليه على النملة. وفي الحديث: دليل على جواز تعليم النساء الكتابة.

فصل

في هديه ﷺ في رُقِيَةِ الْحَيَّةِ

قد تقدم قوله: «لا رُقِيَةَ إِلَّا فِي عَيْنٍ، أَوْ حُمَةِ»، الحممة: بضم الحاء وفتح الميم وتخفيفها. وفي «سنن ابن ماجه» من حديث عائشة: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من الحية والعقرب^(١). ويُذكر عن ابن شهاب الزهري قال: لَدَغَ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيَّةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ مِنْ رَاقٍ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ آلِ حِزْمٍ كَانُوا يَزُقُّونَ رُقِيَةَ الْحَيَّةِ، فَلَمَّا نَهَيْتَ عَنِ الرُّقِيِّ تَرَكُوهَا، فَقَالَ: «ادْعُوا عُمَارَةَ بِنَ حِزْمٍ»، فدعوه، فَعَرَضَ عَلَيْهِ رِقَاهُ، فَقَالَ: «لَا بَأْسَ بِهَا» فَأَذِنَ لَهُ فِيهَا فِرْقَاهُ^(٢).

فصل

في هديه ﷺ في رُقِيَةِ الْقَرْحَةِ وَالْجُرْحِ

أخرجنا في «الصحيحين» عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥١٧) في «الطب»: باب رقية الحية والعقرب، ورجاله ثقات، وأخرج البخاري ١٧٥/١٠ في الطب: باب رقية الحية والعقرب، ومسلم (٢١٩٣) في السلام: باب استحباب الرقية، من حديث عائشة قالت: رخص النبي ﷺ الرقية من كل ذي حُمَةٍ. والحممة - بضم الحاء وتخفيف الميم - هي السم، والمراد بها ذوات السموم.

(٢) ذكره الحافظ في «الإصابة» ٢٧٥/٤ في ترجمة عمارة وقال: رواه البخاري في «التاريخ الصغير» بإسناد جيد، وأخرج مسلم في «صحيحه» (٢١٩٩) (٦٣) عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقي، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب، وإنك نهيت عن الرقي، قال: فعرضوها عليه، فقال: «ما أرى بأساً، مَنْ استطاع منكم أن ينعق أخاه فلينعقه».

الإنسان أو كانت به قرحة أو جرح، قال بأصبغه: هكذا ووضع سفيان سبَابَتَهُ بالأرض، ثم رفعها، وقال: «بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةٍ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا»^(١).

هذا من العلاج الميسر النافع المركَّب، وهي معالجة لطيفة يُعالج بها القروح والجراحات الطرية، لا سيما عند عدم غيرها من الأدوية إذ كانت موجودة بكل أرض، وقد عَلِمَ أن طبيعة التراب الخالص بادرَةٌ يابسة مجفَّفة لرطوبات القروح والجراحات التي تمنع الطبيعة من جودة فعلها، وسرعة اندمالها، لا سيما في البلاد الحارة، وأصحاب الأمزجة الحارة، فإن القروح والجراحات يتبعها في أكثر الأمر سوء مزاج حار، فيجتمع حرارة البلد والمزاج والجراح، وطبيعة التراب الخالص باردة يابسة أشدَّ من برودة جميع الأدوية المفردة الباردة، فتقابل برودة التراب حرارة المرض، لا سيما إن كان التراب قد غُمِلَ وجفَّفَ، ويتبعها أيضاً كثرة الرطوبات الرديئة، والسيلان، والتراب مجفف لها، مزيل لشدة يسه وتجفيفه للرطوبة الرديئة المانعة من برئها، ويحصل به — مع ذلك — تعديل مزاج العضو العليل، ومتى اعتدل مزاج العضو قويت قواه المدبرة، ودفعت عنه الألم بإذن الله.

ومعنى الحديث: أنه يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة، ثم يضعها على التراب، فيعلق بها منه شيء، فيمسح به على الجرح، ويقول هذا الكلام لما فيه من بركة ذكر اسم الله، وتفويض الأمر إليه، والتوكل عليه، فينضمُّ أحد العلاجين إلى الآخر، فيقوى التأثير.

وهل المراد بقوله: «تربة أرضنا» جميع الأرض أو أرض المدينة خاصة؟ فيه قولان، ولا ريب أن من التربة ما تكون فيه خاصية ينفع بخاصيته من أدواء كثيرة،

هل المقصود باستعمال التراب تربة جميع الأرض أو أرض المدينة

(١) أخرجه البخاري ١٧٦/١٠، ١٧٧ في الطب: باب رقية النبي ﷺ، ومسلم (٢١٩٤) في السلام: باب استحباب الرقية من العين والنملة.

ويشفي به أسقاماً رديئة. قال جالينوس: رأيت بالاسكندرية مطحولين، ومستسقين، كثيراً يستعملون طين مصر، ويطلون به على سوقهم، وأفخاذهم، وسواعدهم، وظهورهم، وأضلاعهم، فينتفعون به منفعة بينة. قال: وعلى هذا النحو فقد ينفع هذا الطلاء للأورام العفنة والمترهلة الرخوة، قال: وإني لأعرف قوماً ترهلت أبدانهم كلها من كثرة استفراغ الدم من أسفل، انتفعوا بهذا الطين نفعاً بيناً، وقوماً آخرين شفوا به أوجاعاً مزمنة كانت متمكنة في بعض الأعضاء تمكناً شديداً، فبرأت وذهبت أصلاً. وقال صاحب الكتاب المسيحي: قوة الطين المجلوب من كنوس - وهي جزيرة المصطكى - قوة تجلو وتغسل، وتثبت اللحم في القروح، وتختم القروح. انتهى.

وإذا كان هذا في هذه التراب، فما الظنُّ بأطيبِ تربة على وجه الأرض وأبركها، وقد خالطت ريقَ رسولِ الله ﷺ، وقارنت رقيقته باسم ربه، وتفويضِ الأمرِ إليه، وقد تقدم أن قوى الرُّقية وتأثيرها بحسب الراقي، وانفعال المرقي عن رُقيته، وهذا أمر لا يُنكره طبيب فاضل عاقل مسلم، فإن انتفى أحدُ الأوصاف، فليقل ما شاء.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الوجع بالرُّقية

روى مسلم في «صحيحه» عن عثمان بن أبي العاص، أنه شكى إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال النبي ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَاتٍ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُّ وَأَحَازِرُ»^(١) ففي هذا العلاج من ذكر الله، والتفويض إليه، والاستعاذة بعزته وقدرته من شر الألم ما يذهب به، وتكراره ليكون أنجع وأبلغ، كتكرار الدواء لأخراج المادة، وفي السبع خاصية لا توجد في غيرها، وفي

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) في السلام: باب استحباب وضع يده على موضع الألم.

«الصحيحين»: أن النبي ﷺ، كان يُعوِّذُ بعضَ أهله، يمسح بيده اليُمْنَى، ويقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهِبِ الْبَاسَ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءَ لَا يُعَادِرُ سَقَمًا»^(١). ففي هذه الرُقِيَّةِ توسل إلى الله بكمال ربوبيته، وكمال رحمته بالشفاء، وأنه وحده الشافي، وأنه لا شفاءَ إلا شفاؤه، فتضمنت التوسلَ إليه بتوحيده وإحسانه وربوبيته.

تضمنت هذه الرقية
التوسل إلى الله بتوحيده
وإحسانه وربوبيته

فصل

في هديه ﷺ في علاج حرِّ المصيبة وحُزنها

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وفي «المسند» عنه ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلَفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»^(٢).

إذا تحقق العبد بانه لله
وأن مصيره إليه تسلى
عن مصيبته

وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصائب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصليين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضاً فإنه محفوف بَعْدَمَتَيْنِ: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضاً فإنه ليس الذي أوجده عن عدمه، حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو

(١) أخرجه البخاري ١٧٨/١٠ في الطب: باب النفث في الرقية، ومسلم (٢١٩١) في السلام: باب استحباب رقية المريض.

(٢) أخرجه أحمد ٢٧/٤ من حديث أم سلمة عن أبي سلمة، وهو في «صحيح مسلم» (٩١٨) (٤) في الجنائز: باب ما يقال عند المصيبة، من حديث أم سلمة.

الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبقي عليه وجوده، فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقي، وأيضاً فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكة الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يُخلفَ الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فرداً كما خلقه أوّل مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما حوّلته ونهايته، فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢].

ومن علاجه أن ينظر إلى ما أصيب به، فيجد ربه قد أبقى عليه مثله، أو أفضل منه، وأدخر له — إن صبر ورضي — ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعافٍ مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ذكر بعض العلاجات منها
النظر إلى ما أبقى الله
عليه من النعم...

ومن علاجه أن يُطفئ نارَ مصيبته ببرد التأسّي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل وإد بنو سعد^(١)، ولينظر يَمَنَةً، فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف يَسْرَةً، فهل يرى إلا حسرة؟^(٢)، وأنه لو فتش العالم لم يرَ فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن شروء الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً، أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً، ساءت دهرأ، وإن متعت قليلاً،

التاسي بأهل المصائب
وذكر قصص في ذلك

(١) مقتبس من المثل للأصمطي بن قريع: في كل وإد سعد بن زيد.
(٢) اقتباس من رسالة بديع الزمان الهمداني إلى أبي عامر الضبي يعزيه ببعض أقاربه، انظر «الرسائل» ص ٩٣ طبع الجوائب.

منعت طويلاً، وما ملأت داراً خيرةً إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور إلا خبات له يوم سرور، قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : لكل فرحةٍ ترحه، وما ملئ بيتاً فرحاً إلا ملئته ترحاً. وقال ابن سيرين : ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء .

وقالت هند بنت النعمان : لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكاً، ثم لم تغيب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس، وأنه حق على الله ألا يملأ داراً خيرة إلا ملأها عبرة .

وسألها رجلٌ أن تحده عن أمرها، فقالت : أصبحنا ذا صباح، وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا .

وبكت أختها حُرقة بنت النعمان يوماً، وهي في عزها، فقيل لها : ما يُكيك، لعل أحداً أذاك؟ قالت : لا، ولكن رأيتُ غَضارة^(١) في أهلي، وقلما امتلأت دارٌ سروراً إلا امتلأت حُزناً .

قال إسحاق بن طلحة : دخلتُ عليها يوماً، فقلتُ لها : كيف رأيتِ عبراتِ الملوكة؟ فقالت : ما نحنُ فيه اليوم خيرٌ مما كنا فيه أمس، إنا نجدُ في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في خيرة إلا سيعقبون بعدها عبرة، وأن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت :

فَيِنَّا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سَوْقَةٌ نَتَنَصَّفُ
فَأَفُّ لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقَلَّبُ تَارَاتِ بِنَا وَتَصَرَّفُ^(٢)

(١) الغضارة: طيب العيش، قال ابن عبد ربه صاحب «العقد» :

ألا إنما الدنيا غضارة أيكمة إذا اخضر منها جانب جف جانب

(٢) البيتان في «المؤتلف والمختلف» ص ١٤٥، و«الحماسة» ص ١٢٠٣ بشرح المرزوقي، و«خزانة الأدب» ٣/١٧٨، وقولها: الأمر أمرنا، أي: لا يد فوق أيدينا، والسوقة: من دون الملك، وتنصف: نخدم، والناصف: الخادم.

الجزع يضاعف المرض
ومن علاجها أن يعلم أن الجزع لا يردها، بل يُضاعفها، وهو في الحقيقة
من تزايد المرض .

فوت ثواب الصبر أعظم
من المصيبة
ومن علاجها أن يعلم أن فوت ثواب الصبر والتسليم، وهو الصلاة والرحمة
والهداية التي ضمنها الله على الصبر، والاسترجاع أعظم من المصيبة في الحقيقة .

الجزع يشمت الأعداء...
ومن علاجها أن يعلم أن الجزع يُشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويُغضب
ربه، ويسرُّ شيطانه، ويُحبط أجره، ويُضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أنضى
شيطانه، ورده خاسئاً، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن
إخوانه، وعزَّاهم هو قبل أن يُعزَّوه، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم
الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والسخط على المقدور .

لذة الصبر ومنها بيت
الحمد
ومن علاجها: أن يعلم أن ما يُعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة
أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أُصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيتُ
الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه، فليُنظر: أيُّ المصيبتين
أعظم؟: مصيبة العاجلة، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد. وفي
الترمذي مرفوعاً: «يَوَدُّ نَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ جُلُودَهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ فِي
الدُّنْيَا لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ»^(١).

وقال بعضُ السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا القيام مفاليس .

ترويح القلب برجاء
الخلف من الله
ومن علاجها: أن يروِّح قلبه بروح رجاء الخلف من الله، فإنه من كل شيء
عوض إلا الله، فما منه عوض كما قيل:

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٤) في الزهد: باب ما يود أهل العافية في الجنة، من حديث
عبد الرحمن بن معز عن الأعمش عن أبي الزبير عن جابر، وعبد الرحمن بن معز
ضعيف، أنكرت عليه أحاديث يرويها عن الأعمش لا يتابعه عليها الثقات، وفيه عننة
الأعمش وأبي الزبير.

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عَوْضٌ وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عَوْضٌ

الحظ من المصيبة ما
تحدثه له

ومِنْ علاجها: أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له، فمن رضي، فله الرضى، ومن سخط، فله السخط، فحظك منها ما أحدثته لك، فاختر خيراً الحظوظ أو شرها، فإن أحدثت له سخطاً وكفراً، كتب في ديوان الهالكين، وإن أحدثت له جزءاً وتفريطاً في ترك واجب، أو فعل محرم، كتب في ديوان المفرطين، وإن أحدثت له شكاية، وعدم صبر، كتب في ديوان المغبونين، وإن أحدثت له اعتراضاً على الله، وقدحاً في حكمته، فقد قرع باب الزندقة أو ولجه، وإن أحدثت له صبراً وثباتاً لله، كتب في ديوان الصابرين، وإن أحدثت له الرضى عن الله، كتب في ديوان الراضين، وإن أحدثت له الحمد والشكر، كتب في ديوان الشاكرين، وكان تحت لواء الحمد مع الحمّادين، وإن أحدثت له محبة واشتياقاً إلى لقاء ربه، كُتِبَ في ديوان المحبّين المخلصين.

وفي «مسند الإمام أحمد» والترمذي، من حديث محمود بن لبيد يرفعه: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ». زاد أحمد: «وَمَنْ جَزَعَ فَلَهُ الْجَزَعُ»^(١).

آخر أمره الجزع إلى صبر
الاضطرار

ومن علاجها: أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع غايته، فأخِرُ أمره إلى صبر الاضطرار، وهو غير محمود ولا مُثاب، قال بعض الحكماء: العاقلُ يفعل في أوّل يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومَنْ لم يصبر صَبَرَ الكِرَام، سلا سَلُوهُ البهائم. وفي «الصحيح» مرفوعاً: «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(٢). وقال

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد في «المسند» ٤٢٧/٥ و ٤٢٩ من طريقين بلفظ: «إن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع» وأخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس بلفظ: «إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط» وسنده حسن.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٨/٣ في الجنائز: باب الصبر عند الصدمة الأولى، ومسلم (٩٢٦) =

الأشعث بن قيس: إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً، وإلا سلّوت سلّو البهائم.

ومن علاجها: أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وأن خاصية المحبة وسرّها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب، ثم سخّط ما يُحِبُّه، وأحبّ ما يُسَخِطه، فقد شهد على نفسه بكذبه، وتمكّنت إلى محبوبه.

أنفع الأدوية موافقة الله
فيما أحبه

وقال أبو الدرداء: أن الله إذا قضى قضاءً، أحب أن يرضى به، وكان عمران بن حصين يقول في عنته: أَحَبُّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَيْهِ، وكذلك قال أبو العالية.

وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع المحبّين، ولا يُمكن كلُّ أحد أن يتعالج به.

ومن علاجها: أن يُوازن بين أعظم اللذتين والمتعتين، وأدومهما: لذّة تمتعه بما أُصيب به، ولذّة تمتّعه بثواب الله له، فإن ظهر له الرجحان، فأثر الراجح، فليحمد الله على توفيقه، وإن أثر المرجوح من كل وجه، فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه ودينه أعظم من مصيبته التي أُصيب بها في دنياه.

لذّة التمتع بثواب الله
أعظم من لذّة التمتع بما
أُصيب به

ومن علاجها أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به، ولا ليعذبه به، ولا ليجتأحه، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرّعه وابتهاله، وليراه طريقاً ببابه، لا ثداً بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعاً قصص الشكوى إليه.

ابتلاء الله العبد لامتحان
صبره

قال الشيخ عبد القادر: يا بني! إن المصيبة ما جاءت لِتُهْلِكَكَ، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني! القَدْرُ سَبْعُ، والسَّبْعُ لا يأكل الميتة.

والمقصود: أن المصيبة كير العبد الذي يُسبِكُ به حاصله، فإما أن يخرج

= في الجنائز: باب في الصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى، من حديث أنس بن مالك.

ذهباً أحمر، وإما أن يخرج خبثاً كله، كما قيل:

سَبَكْنَاهُ وَنَحْسِبُهُ لُجَيْنًا فَأَبْدَى الْكَبِيرُ عَن خَبَثِ الْحَدِيدِ

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا، فبين يديه الكير الأعظم، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خيرٌ له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لا بد من أحد الكيرين، فليعلم قدرَ نعمة الله عليه في الكير العاجل.

المصيبة كاسرة لداء
الكبر وقسوة القلب...

ومن علاجها: أن يعلم أنه لولا محنُ الدنيا ومصائبها، لأصاب العبدُ — من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب — ما هو سببُ هلاكه عاجلاً وأجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقدَه في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحانَ من يرحمُ ببلائه، ويتلى بنعمائه كما قيل:

قَدْ يُنْعِمُ بِالْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَتَّبِلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنَّعَمِ

فلولا أنه — سبحانه — يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء، لطغوا، وبَغَوْا، وَعَتَوْا، والله — سبحانه — إذا أراد بعبد خيراً أسقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله يستفرغُ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هدَّبه ونقَّاه وصفَّاه، أهَّله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه.

مرارة الدنيا حلاوة
الآخرة

ومن علاجها: أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة، يقلبها اللهُ سبحانه كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطة إلى حلاوة دائمة خيرٌ له من عكس ذلك، فإن خفي عليك هذا، فانظر إلى قول الصادق المصدوق: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(١).

وفي هذا المقام تفاوتت عقولُ الخلائق، وظهرت حقائقُ الرجال، فأكثرُهم

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) في الجنة: باب صفة الجنة ونعيمها.

آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذل ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإن الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من ذلك إثارة العاجلة، ورفض الآخرة، وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور، وأوائلها ومبادئها، وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة، ويجاوزه إلى العواقب والغايات، فله شأن آخر.

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأولياته وأهل طاعته من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، والفوز الأكبر، وما أعد لأهل البطالة والإضاعة من الخزي والعقاب والحسرات الدائمة، ثم اختر أي القسمين أليق بك، وكل يعمل على شاكلته، وكل أحد يصبو إلى ما يناسبه، وما هو الأولى به، ولا تستطل هذا العلاج، فشدة الحاجة إليه من الطبيب والعليل دعت إلى بسطه، وبالله التوفيق.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الكرب والهم والغم والحزن

أخرجنا في «الصحیحین» من حدیث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(١).

وفي «جامع الترمذي» عن أنس، أن رسول الله ﷺ، كان إذا حزبه أمر، قال: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ»^(٢).

وفيه: عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ، كان إذا أهّمه الأمر، رفع طرفه إلى

(١) أخرجه البخاري ١٢٢/١١، ١٢٣ في الدعوات: باب الدعاء عند الكرب، ومسلم (٢٧٣٠) في الذكر والدعاء: باب دعاء الكرب.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢) في الدعوات، وفي سننه يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف.

السماء فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»، وإذا اجتهد في الدعاء قال: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ»^(١).

وفي «سنن أبي داود» عن أبي بكرة، أن رسول الله ﷺ قال: «دَعَاؤُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢).

وفيها أيضاً عن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولِيهِنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ، أَوْ فِي الْكَرْبِ: اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»^(٣). وفي رواية أنها تقال سبع مرات^(٤).

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٢) في الدعوات: باب ما يقول عند الكرب، وفي سننه إبراهيم بن الفضل المخزومي، وهو متروك.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠): باب ما يقول إذا أصبح، وأحمد ٤٢/٥، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١)، وسنده حسن، وصححه ابن حبان (٢٣٧٠) وقد وهم المصنف رحمه الله، فجعل الحديث من مسند أبي بكر الصديق.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٢٥) في الصلاة: باب في الاستغفار، وابن ماجه (٣٨٨٢) من حديث هلال أبي طعمة مولى عمر بن عبد العزيز؛ عن عمر بن عبد العزيز، عن عبد الله بن جعفر، عن أسماء بنت عميس، وسنده حسن، وله شاهد من حديث عائشة عند ابن حبان (٢٣٦٩) وقد وهم الشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على «الكلم الطيب» ص ٧٣ حين ادعى أن هلالاً أبا طعمة مولى عمر بن عبد العزيز أغفله كل من ألف في تراجم رجال الستة «كالتهديب» و«التقريب» و«الخلاصة» مع أنه مترجم عندهم جميعاً في الكنى، فقد جاء في «التهديب» ما نصه: أبو طعمة الأموي مولى عمر بن عبد العزيز اسمه هلال، شامي، سكن مصر، روى عن مولاة، وعبد الله بن عمر، وعنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وعبد الله بن لهيعة، وقال أبو حاتم: أبو طعمة قاريء مصر، روى عنه ابن يزيد بن جابر، وقال ابن يونس: هلال مولى عمر بن عبد العزيز، يكنى أبا طعمة، كان يقرأ القرآن بمصر، وقال ابن عمار الموصلي: أبو طعمة ثقة.

(٤) لم نقف على هذه الرواية، وقد ذكر الطبراني في «الدعاء» أنها تقال ثلاث مرات.

وفي «مسند الإمام أحمد» عن ابن مسعود، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أَصَابَ عَبْدًا هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمْتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَا ضِيءٌ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَتُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»^(١).

وفي الترمذي عن سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ»^(٢).

وفي رواية «إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ: كَلِمَةً أُخِي يُونُسَ».

وفي «سنن أبي داود» عن أبي سعيد الخدري، قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال: «يا أبا أمامة مالي أراك في المسجد في غير وقت الصلاة؟» فقال: همومٌ لزممتني، وديونٌ يا رسول الله، فقال: «ألا أعلمك كلاماً إذا أنت قلتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ وَقَضَى دَيْنَكَ؟» قال: قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: «قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ

(١) أخرجه أحمد في «المسند» ٣٩٤/١ و ٤٥٢، وسنده صحيح، وصححه ابن حبان (٢٣٧٢) وقد تقدم والحاكم ٥٠٩/١.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٠) في الدعوات: باب دعوة ذي النون في بطن الحوت وأحمد ١٧٠/١، وصححه الحاكم ٥٠٥/١، ووافقه الذهبي، وهو كما قال، والرواية الثانية أخرجه ابن السني ص ١١١ وفي سندها ضعف.

وَفَهَّرَ الرَّجَالَ»، قال: فعلتُ ذلك، فأذهب الله عزَّ وجلَّ همي، وقضى عني ديني^(١).

وفي «سنن أبي داود» عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاستِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»^(٢).

وفي «المسند» أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمرٌ، فَنَزَعَ إلى الصَّلَاةِ^(٣)، وقد قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وفي «السنن»: «عَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنِ النَّفْسِ الْهَمَّ وَالْغَمَّ»^(٤).

ويذكر عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «مَنْ كَثُرَتْ هُمُومُهُ وَعُمُومُهُ، فَلْيُكْثِرْ مِنْ قَوْلٍ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وثبت في «الصحيحين» أنها كنز من كنوز الجنة^(٥).

-
- (١) أخرجه أبو داود (١٥٥٥) في الصلاة: باب في الاستعاذة، وفي سننه غسان بن عوف البصري، وهو لين الحديث.
 - (٢) أخرجه أبو داود (١٥١٨) في الصلاة: باب الاستغفار، وأحمد (٢٢٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٩) وفي سننه الحكم بن مصعب، وهو مجهول.
 - (٣) أخرجه أحمد ٣٨٨/٥، وفي سننه محمد بن عبد الله الدؤلي وعبد العزيز بن أبي حذيفة، لم يوثقهما غير ابن حبان.
 - (٤) حديث صحيح أخرجه الطبراني في «الأوسط» من حديث أبي أمامة، وأحمد في «المسند» ٣١٤/٥، و٣١٦ و٣١٩ و٣٢٦ و٣٣٠ من حديث عبادة بن الصامت، وصححه الحاكم ٧٤/٢، ٧٥ ووافقه الذهبي.
 - (٥) أخرجه البخاري ١٨٠/١١ في الدعوات: باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله، ومسلم (٢٧٠٤) في الذكر والدعاء: باب استحباب خفض الصوت بالذكر، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وفي الترمذي: «أنها بابٌ من أبواب الجنة»^(١).

هذه الأدوية تتضمن خمسة عشر نوعاً من الدواء، فإن لم تقوَ على إذهاب داءِ الهمِّ والغمِّ والحزن، فهو داءٌ قد استحکم، وتمكنت أسبابه، ويحتاج إلى استفراغ كلي.

الأول: توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الإلهية.

الثالث: التوحيد العلمي الاعتقادي.

الرابع: تنزيه الرب تعالى عن أن يظلم عبده، أو يأخذه بلا سبب من العبد يُوجب ذلك.

الخامس: اعتراف العبد بأنه هو الظالم.

السادس: التوسُّل إلى الرب تعالى بأحبِّ الأشياء، وهو أسماءُه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: الحيُّ القيوم.

السابع: الاستعانة به وحده.

الثامن: إقرار العبد له بالرجاء.

التاسع: تحقيق التوكل عليه، والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده، يصرفه كيف يشاء، وأنه ماضٍ فيه حُكْمُه، عدلٌ فيه قضاؤه.

العاشر: أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان، وأن يستضيء به في ظلماتِ الشبهات والشهوات، وأن يتسلَّى به عن كل فائت، ويتعزَّى به عن كل مصيبة، ويستشفى به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه.

الحادي عشر: الاستغفار.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٦) في الدعوات: باب فضل لا حول ولا قوة إلا بالله، من حديث سعد بن عبادة، وإسناده حسن.

الثاني عشر: التوبة.

الثالث عشر: الجهاد.

الرابع عشر: الصلاة.

الخامس عشر: البراءة من الحول والقوة وتفويضهما إلى من هما بيده.

فصل

في بيان جهة تأثير هذه الأدوية في هذه الأمراض

خلق الله - سبحانه - ابن آدم وأعضاءه، وجعل لكل عضو منها كمالاً إذا فقدته أحسن بالألم، وجعل لملكها وهو القلب كمالاً، إذا فقدته، حضرته أسقامه وآلامه من الهموم والغموم والأحزان.

فإذا فقدت العين ما خلقت له من قوة الإبصار، وفقدت الأذن ما خلقت له من قوة السمع، واللسان ما خلقت له من قوة الكلام، فقدت كمالها.

وظيفة القلب

والقلب: خلق لمعرفة فطرته ومحبه وتوحيده والسرور به، والابتهاج بحبه، والرضى عنه، والتوكل عليه، والحب فيه، والبغض فيه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، ودوام ذكره، وأن يكون أحب إليه من كل ما سواه، وارجى عنده من كل ما سواه، وأجل في قلبه من كل ما سواه، ولا نعيم له ولا سرور ولا لذة، بل ولا حياة إلا بذلك، وهذا له بمنزلة الغذاء والصحة والحياة، فإذا فقد غذاءه وصحته وحياته، فالهموم والغموم والأحزان مسارعة من كل صوب إليه، ورهن مقيم عليه.

أمراض القلب

ومن أعظم أدوائه: الشرك والذنوب والغفلة والاستهانة بمحابه ومراضيه، وترك التفويض إليه، وقلة الاعتماد عليه، والركون إلى ما سواه، والسخط بمقدوره، والشك في وعده ووعيده.

علاجات أمراض القلب

وإذا تأملت أمراض القلب، وجدت هذه الأمور وأمثالها هي أسبابها لا

سبب لها سواها، فدواؤه الذي لا دواء له سواه ما تضمنته هذه العلاجات النبوية من الأمور المضادة لهذه الأدواء، فإن المرض يُزال بالضد، والصحة تُحفظ بالمثل، فصحته تحفظ بهذه الأمور النبوية، وأمراضه بأضدادها.

فالتوحيد: يفتح للعبد باب الخير والسرور واللذة والفرح والابتهاج، والتوبة استفراغ للأخلاق والمواد الفاسدة التي هي سبب أسقامه، وحمية له من التخليط، فهي تُغلق عنه باب الشرور، فيفتح له باب السعادة والخير بالتوحيد، ويُغلق باب الشرور بالتوبة والاستغفار.

قال بعض المتقدمين من أئمة الطب: من أراد عافية الجسم، فليقلل من الطعام والشراب، ومن أراد عافية القلب، فليترك الآثام. وقال ثابت بن قرة: راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة الروح في قلة الآثام، وراحة اللسان في قلة الكلام.

والذنوب للقلب، بمنزلة السموم، إن لم تُهلكه أضعفته، ولا بُدَّ، وإذا ضعفت قوته، لم يقدر على مقاومة الأمراض، قال طيبُ القلوب عبد الله بن المبارك.

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدِ يُوْرُثُ الدُّلَّ إِذْمَانُهَا
وَتَرَكَ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَخَيْرَ لِنَفْسِكَ عَصِيَانُهَا

فالهوى أكبر أدوائها، ومخالفته أعظم أدويتها، والنفس في الأصل خُلِقَتْ جاهلة ظالمة، فهي لجهلها تظن شفاءها في اتباع هواها، وإنما فيه تلفها وعطبها، ولظلمها لا تقبل من الطبيب الناصح، بل تضع الدواء موضع الدواء فتعتمده، وتضع الدواء موضع الدواء فتجتنبه، فيتولد من بين إثارها للداء، واجتنابها للدواء أنواع من الأسقام والعِلل التي تعيي الأطباء، ويتعذّر معها الشفاء. والمصيبة العظمى، أنها تُركَّبُ ذلك على القدر، فتبْرِء نفسها، وتلوم ربهَا بلسان الحال دائماً، ويقوى اللوم حتى يُصرِّح به اللسان.

وإذا وصل العليلُ إلى هذه الحال، فلا يطمع في برئه إلا أن تتداركه رحمة من ربه، فيُحييه حياةً جديدةً، ويرزقه طريقةً حميدة، فهذا كان حديثُ ابن عباس في دُعاء الكرب مشتملاً على توحيد الإلهية والربوبية، ووصف الرب سبحانه بالعظمة والحلم، وهاتان الصفتان مستلزمتان لكمال القدرة والرحمة، والإحسان والتجاوز، ووصفه بكمال ربوبيته للعالم العلوي والسفلي، والعرش الذي هو سقفُ المخلوقات وأعظمها، والربوبية التامة تستلزمُ توحيدَه، وأنه الذي لا تنبغي العبادةُ والحبُّ والخوفُ والرجاءُ والإجلالُ والطاعةُ إلا له. وعظمتُه المطلقة تستلزمُ إثباتَ كل كمال له، وسلبَ كل نقص وتمثيل عنه. وحلمُه يستلزمُ كمال رحمته وإحسانه إلى خلقه.

فَعِلْمُ القلبِ ومعرفته بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيدَه، فيحصل له من الابتهاج واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم، وأنت تجدُ المريض إذا ورد عليه ما يسره ويُفرحه، ويقوي نفسه، كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسي، فحصولُ هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى.

ثم إذا قابلت بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التي تضمَّنها دعاءُ الكرب، وجدته في غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق، وخروج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور، وهذه الأمور إنما يصدق بها من أشرقت فيه أنوارها، وبأشرف قلبه حقائقها.

وفي تأثير قوله: «يا حي قيوم، برحمتك أستغيث» في دفع هذا الداء مناسبة بديعة، فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال، مستلزمة لها، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسمُ الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى: هو اسمُ الحي القيوم، والحياة التامة تُضاد جميع الأسقام والآلام، ولهذا لما كَمَلت حياة أهل الجنة لم يلحقهم همٌّ ولا غمٌّ ولا حَزَنٌ ولا شيء من الآفات. ونقصانُ الحياة تضر بالأفعال، وتنافي القيومية،

حديث ابن عباس مشتمل على توحيد الإلهية والربوبية وصفتي العظمة والحلم

فوائد صفتي «الحي القيوم»

فكمال القيومية لكمال الحياة، فالحي المطلق التام الحياة لا تفوته صفة الكمال البتة، والقيوم لا يتعدّد عليه فعل ممكن البتة، فالتوسل بصفة الحياة القيومية له تأثير في إزالة ما يُضادُّ الحياة، ويضُرُّ بالأفعال.

توسله ﷺ بربوبية الله
لجبريل وميكائيل
وإسرافيل

ونظير هذا توسلُ النبي ﷺ إلى ربه بربوبيته لجبريل وميكائيل وإسرافيل أن يَهْدِيَهُ لما اختلفَ فيه من الحقِّ بإذنه، فإن حياة القلب بالهداية، وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الأملأكَ الثلاثة بالحياة، فـجبريلُ موكَّلُ بالوحي الذي هو حياةُ القلوب، وميكائيلُ بالقطر الذي هو حياةُ الأبدان والحيوان، وإسرافيلُ بالنفخ في الصُّور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها، فالتوسل إليه سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة، له تأثير في حصول المطلوب.

والمقصود: أن لاسم الحي القيوم تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات، وكشفِ الكُربات، وفي «السنن» و«صحيح أبي حاتم» مرفوعاً: «اسمُ اللَّهِ الأعظم في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿وَالهُكُّمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة آل عمران ﴿آلَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»، قال الترمذي: حديث صحيح^(١).

وفي «السنن» و«صحيح ابن حبان» أيضاً: من حديث أنس أن رجلاً دعا،

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٢) في الدعوات: باب ما جاء في جامع الدعوات عن رسول الله ﷺ، وابن ماجه (٣٨٥٥) في الدعاء: باب اسم الله الأعظم، وأبو داود (١٤٩٦) في الصلاة: باب الدعاء، وأحمد ٤٦١/٦، والدارمي ٤٥٠/٢، من حديث عبيد الله بن أبي زياد، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد، وعبيد الله ليس بالقوي، وشهر بن حوشب تكلم فيه غير واحد، لكن له شاهد يتقوى به من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث: البقرة وآل عمران وطه»، أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» ٦٣/١، والحاكم ٥٠٦/١، وسنده حسن.

فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المَنَّانُ، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيُّومُ، فقال النبي ﷺ: «لَقَدْ دَعَا اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ»^(١).

ولهذا كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: «يا حيُّ يا قيُّومُ».

ما في: «اللهم رحمتك أرجو...» والله ربي...»

وفي قوله: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» من تحقيق الرجاء لمن الخير كله بيديه والاعتماد عليه وحده، وتفويض الأمر إليه، والتضرع إليه، أن يتولَّى إصلاح شأنه، ولا يكله إلى نفسه، والتوسل إليه بتوحيده مما له تأثير قوي في دفع هذا الداء، وكذلك قوله: «اللَّهُ ربي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً».

ما في: «اللهم إني عبدك ابن عبدك» من الفوائد

وأما حديث ابن مسعود: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ»، ففيه من المعارف الإلهية، وأسرار العبودية ما لا يتسع له كتاب، فإنه يتضمن الاعتراف بعبوديته وعبودية آبائه وأمهاته، وأن ناصيته بيده يُصرِّفها كيف يشاء، فلا يملك العبدُ دونه لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياةً، ولا نُشوراً، لأن من ناصيته بيد غيره، فليس إليه شيءٌ من أمره، بل هو عانٍ في قبضته، ذليل تحت سلطان قهره.

إثبات القدر والعدل لله في «ماضٍ في حكمك...»

وقوله: «مَاضٍ فِي حُكْمِكَ عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ» متضمن لأصلين عظيمين عليهما مدار التوحيد.

أحدهما: إثبات القدر، وأن أحكام الربِّ تعالى نافذة في عبده ماضية فيه، لا انفكاكَ له عنها، ولا حيلةَ له في دفعها.

والثاني: أنه — سبحانه — عدلٌ في هذه الأحكام، غير ظالم لعبده، بل لا

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٥) في الصلاة: باب الدعاء، والنسائي ٥٢/٣ في السهو: باب الدعاء بعد الذكر، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (٢٣٨٢)، والحاكم ٥٠٣/١، ووافقه الذهبي.

يُخْرَجُ فِيهَا عَنْ مَوْجِبِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، فَإِنَّ الظُّلْمَ سَبَبُهُ حَاجَةُ الظَّالِمِ، أَوْ جَهْلُهُ، أَوْ سَفَهُهُ، فَيَسْتَحِيلُ صَدُورُهُ مِمَّنْ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَمَنْ هُوَ غَنِيٌّ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَمَنْ هُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، فَلَا تَخْرُجُ ذَرَّةٌ مِنْ مَقْدُورَاتِهِ عَنْ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، كَمَا لَمْ تَخْرُجْ عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَحِكْمَتُهُ نَافِذَةٌ حَيْثُ نَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ وَقُدْرَتُهُ، وَلِهَذَا قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ هُودٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ خَوَّفَهُ قَوْمُهُ بِالْهَتَمِ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٧]، أَي: مَعَ كَوْنِهِ سَبْحَانَهُ آخِذاً بِنَوَاصِي خَلْقِهِ وَتَصْرِيفُهُمْ كَمَا يَشَاءُ، فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، وَالْإِحْسَانِ وَالرَّحْمَةِ. فَقَوْلُهُ: «مَاضٍ فِيَّ حِكْمُكَ»، مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ: (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)، وَقَوْلُهُ: «عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ» مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ: «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، ثُمَّ تَوَسَّلَ إِلَى رَبِّهِ بِأَسْمَائِهِ الَّتِي سَمَى بِهَا نَفْسَهُ مَا عَلِمَ الْعِبَادَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمُوا. وَمِنْهَا: مَا اسْتَأْثَرَهُ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُطَّلِعْ عَلَيْهِ مَلَكاً مَقْرَباً، وَلَا نَبِيّاً مَرْسِلاً، وَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ أَعْظَمُ الْوَسَائِلِ، وَأَحْبُّهَا إِلَى اللَّهِ، وَأَقْرَبُهَا تَحْصِيلاً لِلْمَطْلُوبِ.

«أسالك بكل اسم هو لك...»

ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ لِقَلْبِهِ كَالرَّبِيعِ الَّذِي يَرْتَعُ فِيهِ الْحَيَوَانُ، وَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ شِفَاءً هَمَّهُ وَغَمَّهُ، فَيَكُونُ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الدَّوَاءِ الَّذِي يَسْتَأْصِلُ الدَّاءَ، وَيُعِيدُ الْبَدْنَ إِلَى صِحَّتِهِ وَعَدْتَالِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ لِحُزْنِهِ كَالْجِلَاءِ الَّذِي يَجْلُو الطُّبُوعَ وَالْأَصْدِيَةَ، وَغَيْرَهَا، فَأَحْرَى بِهَذَا الْعِلَاجِ إِذَا صَدَقَ الْعَلِيلُ فِي اسْتِعْمَالِهِ أَنْ يُزِيلَ عَنْهُ دَاءَهُ، وَيُعْقِبَهُ شِفَاءً تَاماً، وَصِحَّةً وَعَافِيَةً، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

«أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبى...»

وَأَمَّا دَعْوَةُ ذِي النُّونِ: فَإِنَّ فِيهَا مِنْ كَمَالِ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ لِلرَّبِّ تَعَالَى، وَاعْتِرَافِ الْعَبْدِ بِظُلْمِهِ وَذَنْبِهِ مَا هُوَ مِنْ أَبْلَغِ أَدْوِيَةِ الْكُرْبِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَأَبْلَغِ الْوَسَائِلِ إِلَى اللَّهِ - سَبْحَانَهُ - فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ وَالتَّنْزِيهِ يَتَضَمَّنَانِ إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالِ اللَّهِ، وَسَلْبَ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ وَتَمَثِيلٍ عَنْهُ. وَالْاعْتِرَافُ بِالظُّلْمِ

دعوة ذي النون

يتضمّن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله، واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه، فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية والاعتراف.

«اللهم إني أعوذ بك من
الهم والحزن...»

وأما حديث أبي أمامة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ»، فقد تضمّن الاستعاذة من ثمانية أشياء، كلُّ اثنين منها قرينان مزدوجان، فالهَمُّ والحزن أخوان، والعجز والكسل أخوان، والجبن والبخل أخوان، وذلُّ الدِّينِ وغلبةُ الرجال أخوان، فإن المكروه المؤلم إذا ورد على القلب، فإما أن يكون سببهُ أمراً ماضياً، فيوجب له الحزن، وإن كان أمراً متوقعاً في المستقبل، أوجب الهم، وتخلّف العبد عن مصالحه وتفويتها عليه، إما أن يكون من عدم القدرة وهو العجز، أو من عدم الإرادة وهو الكسل، وحبسُ خيره ونفعه عن نفسه وعن بني جنسه، إما أن يكون منع نفعه ببدنه، فهو الجبن، أو بماله، فهو البخل، وقهرُ الناس له إما بحق، فهو ذلُّ الدِّينِ، أو بباطل فهو غلبةُ الرجال، فقد تضمّن الحديث الاستعاذة من كل شر، وأما تأثيرُ الاستغفار في دفع الهمِّ والغمِّ والضيق، فليما اشترك في العلم به أهلُ الملل وعقلاءُ كلِّ أمة أن المعاصي والفساد تُوجب الهمَّ والغم، والخوف والحزن، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم، وسممتها نفوسهم، ارتكبوها دفعا لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهم والغم، كما قال شيخُ الفسوق^(١):

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

النوبة والاستغفار

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب، فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار.

(١) هو الأعشى ميمون بن قيس، وهو في ديوانه ص ١٢١، وقد اقتدى به أبو نواس في قوله:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ودأوني بالتي كانت هي الداء

وأما الصلاة، فشأنها في تفريح القلب وتقويته، وشرحه وابتهاجه ولذته أكبرُ شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله، وقربه والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها، واشتغالِه عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاوراتهم، وانجذاب قُوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفطره، وراحته من عدوه حالة الصلاة ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التي لا تُلائم إلا القلوب الصحيحة. وأما القلوب العليئة، فهي كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة.

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفساد الدنيا والآخرة، وهي مناهة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطرقة للداء عن الجسد، ومُنورة للقلب، ومُبَيضة للوجه، ومنشئة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرية للمظلوم، وقامعة لأخلاق الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للثَّمة، ومُنزلة للرحمة، وكاشفة للغمَّة، ونافعة من كثير من أوجاع البطن. وقد روى ابن ماجه في «سننه» من حديث مجاهد، عن أبي هريرة قال: رأيت رسول الله ﷺ وأنا نائم أشكو من وجع بطني، فقال لي: «يا أبا هريرة أشكمت دزد؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «قم فصل، فإن في الصلاة شفاء»^(١). وقد روي هذا الحديث موقوفاً على أبي هريرة، وأنه هو الذي قال ذلك لمجاهد، وهو أشبه. ومعنى هذه اللفظة بالفارسي: أوجعك بطنك؟.

فإن لم يشرح صدرُ زنديق الأطباء بهذا العلاج، فيُخاطب بصناعة الطب، ويقال له: الصلاة رياضة النفس والبدن جميعاً، إذ كانت تشتت على حركات وأوضاع مختلفة من الانتصاب، والركوع، والسجود، والتورك، والانتقالات وغيرها من الأوضاع التي يتحرك معها أكثر المفاصل، وينغمز معها أكثر الأعضاء

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٨) في «الطب»: باب الصلاة شفاء، وإسناده ضعيف.

الباطنة، كالمعدة، والأمعاء، وسائر آلات النفس، والغذاء، فما يُنكر أن يكون في هذه الحركات تقويةً وتحليلٌ للمواد، ولا سيما بواسطة قوة النفس وانشراحها في الصلاة، فتقوى الطبيعة، فيندفع الألم، ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاء به الرسل، والتعويض عنه بالإلحاد داء ليس له دواء إلا نارٌ تُلظّي لا يصلها إلا الأشقى الذي كدّب وتولّى.

وأما تأثيرُ الجهادِ في دفع الهم والغم، فأمر معلوم بالوجدان، فإن النفس تاتير الجهاد في دفع الهم متى تركت صائِلَ الباطل وصولته واستيلاءه، اشتد همُّها وغمُّها، وكرهٌها وخوفٌها، فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهمَّ والحزنَ فرحاً ونشاطاً وقوةً، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فلا شيء أذهب لجوى القلب وغمه وهمّه وحزنه من الجهاد، والله المستعان.

وأما تأثيرُ «لا حول ولا قوة إلا بالله» في دفع هذا الداء، فلما فيها من كمال التفويضِ والتبرّي من الحول والقوة إلا به، وتسليم الأمر كله له، وعدم منازعته في شيء منه، وعموم ذلك لكلِّ تحول من حال إلى حال في العالم العلوي والسفلي، والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كُله بالله وحده، فلا يقوم لهذه الكلمة شيء. وفي بعض الآثار: إنه ما ينزل ملك من السماء، ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله، ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان، والله المستعان.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الفزع، والأرق المانع من النوم

روى الترمذي في «جامعه» عن بُريدة قال: شكى خالد إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما أنام الليل من الأرق، فقال النبي ﷺ: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَتُ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ، وَمَا أَقْلَتُ، وَرَبَّ

الشَّيَاطِينِ، وَمَا أَصَلَّتْ، كُنْ لِي جَاراً مِنْ شَرِّ خَلْقِكَ كُلِّهِمْ جَمِيعاً أَنْ يَفْرُطَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ، أَوْ يَبْغِيَ عَلَيَّ، عَزَّ جَارُكَ، وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(١).

وفيه أيضاً: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ كان يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الْفَرْعِ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ، وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ»، قال: وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عقل من بنيه. ومن لم يعقل كتبه، فأعلقه عليه^(٢)، ولا يخفى مناسبة هذه العُودَة لعلاج هذا الداء.

فصل

في هديه ﷺ في علاج داء الحريق وإطفائه

يذكر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْحَرِيقَ فَكَبِّرُوا، فَإِنَّ التَّكْبِيرَ يُطْفِئُهُ»^(٣). لما كان الحريق سبب النار، وهي مادة الشيطان التي خُلِقَ منها، وكان فيه من الفساد العام ما يُناسب الشيطان بمادته وفعله، كان للشيطان إعانة عليه، وتنفيذ له، وكانت النار تطلب بطبعها العلو والفساد، وهذان الأمران، وهما العلو في الأرض والفساد هما هدي الشيطان، وإليهما يدعو، وبهما يُهْلِكُ بني آدم، فالنار والشيطان كل منهما يُريد العلو في

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٨) في الدعوات، وفي سننه الحكم بن ظهير، وهو متروك، وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقوي، والحكم بن ظهير ترك حديثه بعض أهل العلم.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٩٣) في الطب: باب كيف الرقي، والترمذي (٣٥١٩)، وأحمد في «المسند» (٦٦٩٦)، والحاكم ٥٤٨/١ ورجاله ثقات، وله شاهد مرسل عند ابن السني (٦٤٣).

(٣) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» ٢٨٩ و ٢٩٠ و ٢٩١ و ٢٩٢ وفي سننه القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم العمري، وهو متروك، ورماه أحمد بالكذب.

الأرض والفساد، وكبرياء الرب — عز وجل — تقمَعُ الشيطانَ وفِعْلُهُ .

أثر التكبير في إخفاء
النار مادة الشيطان

ولهذا كان تكبير الله — عزَّ وجلَّ — له أثر في إطفاء الحريق، فإن كبرياء الله — عز وجل — لا يقوم لها شيء، فإذا كَبَّرَ المسلم ربَّه، أثار تكبيره في خمود النار وخمود الشيطان التي هي مادته، فيُطفئ الحريق، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا، فوجدناه كذلك، والله أعلم .

فصل

في هديه ﷺ في حفظ الصحة

قوام البدن على الحرارة
والرطوبة

لما كان اعتدالُ البدن وصحته وبقاؤه إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة، فالرطوبة مادته، والحرارة تُنضِجُها، وتدفع فضلاتها، وتصلحها، وتلطفها، وإلا أفسدت البدن ولم يمكن قيامه، وكذلك الرطوبة هي غذاء الحرارة، فلولا الرطوبة، لأحرقت البدن وأبيسته وأفسدته، فقوامُ كلِّ واحدة منهما بصاحبها، وقوام البدن بهما جميعاً، وكلُّ منهما مادة للأخرى، فالحرارة مادة للرطوبة تحفظها وتمنعها من الفساد والاستحالة، والرطوبة مادة للحرارة تغذوها وتحملها، ومتى مالت إحداهما إلى الزيادة على الأخرى، حصل لمزاج البدن الانحراف بحسب ذلك، فالحرارة دائماً تُحلِّلُ الرطوبة، فيحتاجُ البدن إلى ما به يُخَلَّفُ عليه ما حلَّته الحرارة — لضرورة بقائه — وهو الطعامُ والشرابُ، ومتى زاد على مقدار التحلل، ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته، فاستحالت موادَّ رديئة، فعاثت في البدن، وأفسدت، فحصلت الأمراضُ المتنوعة بحسب تنوع موادِّها وقبول الأعضاء واستعدادها، وهذا كُلُّهُ مستفادٌ من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، فأرشد عباده إلى إدخال ما يُقيِّمُ البدن من الطعام والشراب عَوَضَ ما تحلَّل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً، وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض، أعني عدم الأكل والشرب، أو الإسراف فيه .

ما يستفاد من قوله:
﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
وَلَا تُسْرِفُوا﴾

فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين، ولا ريب أن البدن دائماً في التحلل والاستخلاف، وكلما كثر التحلل ضعفت الحرارة لفناء مادتها، فإن كثرة التحلل تُفني الرطوبة، وهي مادة الحرارة، وإذا ضعفت الحرارة، ضعف الهضم، ولا يزال، كذلك حتى تفنى الرطوبة، وتنطفئ الحرارة جملةً، فيستكمل العبد الأجل الذي كتب الله له أن يصل إليه .

غاية علاج الإنسان
الاعتدال بين الحرارة
والرطوبة

فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة، لا أنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما، فإن هذا مما لم يحصل لبشر في هذه الدار، وإنما غاية الطبيب أن يحمي الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيره، ويحمي الحرارة عن مُضعفاتها، ويعدل بينهما بالعدل في التدبير الذي به قام بدن الإنسان، كما أن به قامت السماوات والأرض وسائر المخلوقات، إنما قوامها بالعدل، ومن تأمل هدي النبي ﷺ وجده أفضل هدي يُمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها موقوفٌ على حسن تدبير المطعم والمشرب، والملبس والمسكن، والهواء والنوم، واليقظة والحركة، والسكون والمنكح، والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسُنَّ والعادة، كان أقرب إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل .

الصحة من أجل النعم
وذكر الأخبار في ذلك

ولما كانت الصحة والعافية من أجل نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظاً من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يُضادها، وقد روى البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُورٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١).

وفي الترمذي وغيره من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري، قال: قال

(١) أخرجه البخاري ١٩٦/١١ في الرقاق.

رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، آمِنًا فِي سِرِّهِ، عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»^(١).

وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ، أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَتُرْوَكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»^(٢).

ومن ها هنا قال من قال من السلف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، قال: عن الصحة.

وفي «مسند الإمام أحمد» أن النبي ﷺ قال للعباس: «يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ! سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٣).

وفيه عن أبي بكر الصديق، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَلُوا اللَّهَ الْيَقِينَ وَالْمُعَافَاةَ، فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ»^(٤)، فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يَتِمُّ صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه.

وفي «سنن النسائي» من حديث أبي هريرة يرفعه: «سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ»

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧)، وابن ماجه (٤١٤١) كلاهما في الزهد، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٠) والحميدي في «مسنده» رقم (٤٣٩) وفي سنده مجهول، لكن له شاهد من حديث أبي الدرداء عند ابن حبان (٢٥٠٣) وآخر من حديث ابن عمر عند ابن أبي الدنيا، فيتقوى بهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٥٥) في التفسير: باب ومن سورة ألهاكم التكاثر، وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (٢٥٨٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٨٣)، والترمذي (٣٥٠٩) في الدعوات، وفي سنده يزيد بن أبي زياد الكوفي، وهو ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد (٥) و (١٧) وابن ماجه (٣٨٤٩)، وهو حديث صحيح مخرج في تعليقتنا على مسند أبي بكر.

والمُعَاْفَاءَةُ، فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ يَقِينٍ خَيْرًا مِنْ مُعَاْفَاءَةٍ^(١). وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعمو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلية بالمعافاة، فإنها تتضمن المداومة والاستمرار على العافية.

وفي الترمذي مرفوعاً: «مَا سَأَلَ اللَّهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَافِيَةِ»^(٢).

وقال عبدُ الرحمن بن أبي ليلى: عن أبي الدرداء، قلت: يا رسول الله! لأن أعافى فأشكر أحبَّ إليَّ من أن أبتلى فأصبر، فقال رسول الله ﷺ: «وَرَسُولُ اللَّهِ يُحِبُّ مَعَكَ الْعَافِيَةَ».

ويُذكَرُ عن ابن عباس أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له: ما أسأل الله بعد الصلوات الخمس؟ فقال: «سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ»، فأعاد عليه، فقال له في الثالثة: سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ».

وإذا كان هذا شأن العافية والصحة، فنذكر من هديه ﷺ في مراعاة هذه الأمور ما يتبين لمن نظر فيه أنه أكمل هدي على الإطلاق ينال به حفظ صحة البدن والقلب، وحياة الدنيا والآخرة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هديه ﷺ في مراعاة أمور الصحة

فمسل

فأما المطعمُ والمشرب، فلم يكن من عاداته ﷺ حبسُ النفس على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى ما سواه، فإن ذلك يضر بالطبيعة جداً، وقد يتعدَّر عليها أحياناً، فإن لم يتناول غيره، ضعف أو هلك، وإن تناول غيره، لم تقبله الطبيعة، واستضرَّ به، فقصرها على نوع واحد دائماً — ولو أنه أفضل الأغذية — خطر مضر.

هديه ﷺ في المطعم والمشرب

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٠) في الدعوات، وفي سننه عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، وهو ضعيف.

بل كان يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم، والفاكهة، والخبز،
والتمر، وغيره مما ذكرناه في هديه في المأكول، فعليك بمراجعتة هناك.

تعديل الطعام بضده

وإذا كان في أحد الطعامين كيفية تحتاج إلى كسر وتعديل، كسرهما وعدلها
بضدها إن أمكن، كتعديل حرارة الرطَّبِ بالبطيخ، وإن لم يجد ذلك، تناوله على
حاجة وداعية من النفس من غير إسراف، فلا تتضرر به الطبيعة.

ترك ما تعافه النفس

وكان إذا عافت نفسه الطعام لم يأكله، ولم يُحمِّلها إياه على كره، وهذا
أصل عظيم في حفظ الصحة، فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه، ولا يشتهي، كان
تضرره به أكثر من انتفاعه. قال أبو هريرة^(١): ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط،
إن اشتهاه أكله، وإلا تركه، ولم يأكل منه. ولما قُدِّمَ إليه الصَّبُّ المشوي لم يأكل
منه، فقيل له: أهو حرام؟ قال: «لَا، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي
أَعَافُهُ»^(٢). فراعى عادته وشهوته، فلما لم يكن يعتاد أكله بأرضه، وكانت نفسه لا
تشتهي، أمسك عنه، ولم يمنع من أكله من يشتهي، ومن عادته أكله.

محبته ﷺ للذراع

وكان يحب اللحم، وأحبُّه إليه الذراع، ومقدم الشاة، ولذلك سم فيه، وفي
«الصحيحين»: أني رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تُعجبه^(٣).

أكله ﷺ للرقبة

وذكر أبو عبيدة وغيره عن ضباعة بنت الزبير، أنها ذبحت في بيتها شاة،

-
- (١) في الأصل (أنس) وهو وهم من المؤلف رحمه الله، فالحديث معروف عن أبي هريرة، أخرجه البخاري ٤٧٧/٩، ومسلم (٢٠٦٤)، وأبو داود (٣٧٦٣)، والترمذي (٢٠٣٢)، وابن ماجه (٣٢٥٩)، وأحمد ٤٢٧/٢ و ٤٧٤ و ٤٨١ و ٤٩٥، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص ١٨٩ و ١٩٠ و ١٩١، والترمذي في «الشمائل».
- (٢) أخرجه البخاري ٥٧٢/٩، ٥٧٤ في الأطعمة: باب الضب، ومسلم (١٩٤٦) في الصيد: باب إباحة الضب، من حديث خالد بن الوليد.
- (٣) أخرجه البخاري ٢٦٤/٦، ٢٦٥ في الأنبياء: باب قول الله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه)، ومسلم (١٩٤) في الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة، من حديث أبي هريرة.

فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن أطعمينا من شاتكم، فقالت للرسول: ما بقي عندنا إلا الرقبة، وإنني لأستحي أن أرسل بها إلى رسول الله ﷺ، فرجع الرسول فأخبره، فقال: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَقُلْ لَهَا: أُرْسِلِي بِهَا، فَإِنَّهَا هَادِيَةُ الشَّاةِ وَأَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ، وَأَبْعَدُهَا مِنَ الْأَدَى»^(١).

ولا ريب أن أخفَّ لحم الشاة لحم الرقبة، ولحم الذراع، والعَضُد، وهو أخفُّ على المعدة، وأسرعُ انهضاماً، وفي هذا مراعاة الأغذية التي تجمع ثلاثة أوصاف. أحدها: كثرة نفعها وتأثيرها في القوى. الثاني: خفتها على المعدة، وعدم ثقلها عليها. الثالث: سرعة هضمها، وهذا أفضل ما يكون من الغذاء، والتغذي باليسير من هذا أنفع من الكثير من غيره.

وكان يُحب الحلواءَ والعسلَ، وهذه الثلاثة — أعني: اللحم والعسل والحلواء — من أفضل الأغذية، وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء، وللإغتناء بها نفع عظيم في حفظ الصحة والقوة، ولا ينقِرُ منها إلا من به علة وآفة.

محبته ﷺ للحلواء
والعسل وبيان أنهما مع
اللحم أفضل الأغذية

وكان يأكلُ الخبزَ مَادُوماً ما وجد له إداماً، فتارة يأدِمُهُ باللحم ويقول: «هُوَ سَيِّدُ طَعَامِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». رواه ابن ماجه وغيره^(٢). وتارة بالبطيخ، وتارة بالتمر، فإنه وضع تمره على كسرة شعير، وقال: «هَذَا إِدَامٌ هَذِهِ»^(٣). وفي هذا من تدبير الغذاء أن خبز الشعير بارد يابس، والتمر حار رطب على أصح القولين، فأدَمُ

يؤدِمُ ﷺ خبز الشعير
باللحم والبطيخ والتمر
والخل وفوائد ذلك

- (١) أخرجه أحمد ٣٦٠/٦، ٣٦١، والنسائي، وفي سننه الفضل بن الفضل المدني لم يوثقه غير ابن حبان، وبقية رجاله ثقات.
- (٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣٠٥) في الأطعمة: باب اللحم، وفي سننه سليمان بن عطاء الجزري وهو منكر الحديث، ومسلمة بن عبد الله الجهني وأبو مشجعة وهما مجهولان.
- (٣) أخرجه أبو داود (٣٢٥٩) من حديث يوسف بن عبد الله بن سلام، ورجالهم ثقات لكنه منقطع، وأخرجه أبو داود (٢٢٦٠) والترمذي في «الشمائل» (١٨٤)، وفي سننه مجهول.

معنى الأدم

خبز الشعير به من أحسن التدبير، لا سيما لمن تلك عادتُهم، كأهل المدينة، وتارة بالخل، ويقول: «نِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ»، وهذا ثناءٌ عليه بحسب مقتضى الحال الحاضر، لا تفضيلٌ له على غيره، كما يظن الجهال، وسبب الحديث أنه دخل على أهله يوماً، فقدموا له خبزاً، فقال: «هَلْ عِنْدَكُمْ من إِدَامٍ؟» قالوا: ما عندنا إلا خل، فقال: «نِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ»^(١).

والمقصود: أن أكل الخبز مآدوماً من أسباب حفظ الصحة، بخلاف الاقتصار على أحدهما وحده. وسمي الأدم أداماً: لإصلاحه الخبز، وجعله ملائماً لحفظ الصحة. ومنه قوله في إباحته للخاطب النظر: إنه أحرى أن يُؤدَمَ بينهما، أي أقرب إلى الالتئام والموافقة، فإن الزوج يدخل على بصيرة، فلا يندم.

أكله ﷺ الفاكهة

وكان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها، ولا يحتمي عنها، وهذا أيضاً من أكبر أسباب حفظ الصحة، فإن الله سبحانه بحكمته جعل في كل بلدة من الفاكهة ما ينتفع به أهلها في وقته، فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم، ويُغني عن كثير من الأدوية، وقل من احتذى عن فاكهة بلده خشية السقم إلا وهو من أسقم الناس جسماً، وأبعدهم من الصحة والقوة.

وما في تلك الفاكهة من الرطوبات، فحرارة الفصل والأرض، وحرارة المعدة تُنضجها وتدفع شرها إذا لم يُسرف في تناولها، ولم يُحمّل منها الطبيعة فوق ما تحتمله، ولم يُفسد بها الغذاء قبل هضمه، ولا أفسدها بشرب الماء عليها، وتناول الغذاء بعد التحلي منها، فإن القولنج كثيراً ما يحدث عند ذلك، فمن أكل منها ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، كانت له دواءً نافعاً.

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٢) في الأشربة: باب فضيلة الخل، وأبو داود (٣٨٢٠)، والترمذي (١٨٤٠)، وابن ماجه (٣٣١٧)، والنسائي ١٤/٧ في الأيمان: باب إذا حلف ألا يأتم فأكل خبزاً بخل.

فصل

في هديه ﷺ في هيئة الجلوس للأكل

صح عنه أنه قال: «لَا أَكُلُ مُتَكِنًا»^(١)، وقال: «إِنَّمَا أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَأَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ»^(٢).

عدم الاتكاء عند الأكل

وروى ابن ماجه في «سننه» أنه نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه^(٣).

عدم الأكل مع الانبطاح

وقد فسر الاتكاء بالتربُّع، وفسر بالاتكاء على الشيء، وهو الاعتماد عليه، وفسر بالاتكاء على الجنب. والأنواع الثلاثة من الاتكاء، فنوع منها يضرُّ بالأكل، وهو الاتكاء على الجنب، فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي عن هيئته، ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة، ويضغط المعدة، فلا يستحکم فتحها للغذاء، وأيضاً فإنها تميل ولا تبقى منتصبه، فلا يصل الغذاء إليها بسهولة.

تفسير الاتكاء

(١) أخرجه البخاري ٤٧٢/٩ في الأطعمة: باب الأكل متكناً، من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة، وفي سننه عبيد الله بن الوليد الوصافي وهو ضعيف، لكن له طريق أخرى عند ابن سعد ٣٨١/١ وشاهد مرسل من حديث الحسن عند أحمد في «الزهد» ص ٥، ٦ وإسناده صحيح، فيتقوى الحديث ويصح.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٠) في الأطعمة: باب النهي عن الأكل منبطحاً، وأبو داود (٣٧٧٥)، من حديث جعفر بن برقان عن الزهري عن سالم عن أبيه، قال أبو داود: هذا الحديث لم يسمعه جعفر من الزهري، وهو منكر، حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء، حدثنا أبي، حدثنا جعفر أنه بلغه عن الزهري بهذا الحديث.

وأما النوعان الآخران: فمن جلوس الجبابة المنافي للعبودية، ولهذا قال: «أكل كما يأكل العبد» وكان يأكل وهو مُقَعٌ^(١)، ويُذكر عنه أنه كان يجلس للأكل متورِّكاً على ركبتيه، ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر قدمه اليمنى تواضعاً لربه عز وجل، وأدباً بين يديه، واحتراماً للطعام وللمؤاكل، فهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها، لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي الذي خلقها الله سبحانه عليه مع ما فيها من الهيئة الأدبية، وأجود ما اغتذى الإنسان إذا كانت أعضاؤه على وضعها الطبيعي، ولا يكون كذلك إلا إذا كان الإنسان منتصباً الانتصاب الطبيعي، وأردأ الجلوسات للأكل الاتكاء على الجنب، لما تقدم من أن المريء، وأعضاء الازدراد تضيق عند هذه الهيئة، والمعدة لا تبقى على وضعها الطبيعي، لأنها تنعصر مما يلي البطن بالأرض، ومما يلي الظهر بالحجاب الفاصل بين آلات الغذاء، وآلات التنفس.

وإن كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائد والوطاء الذي تحت الجالس، فيكون المعنى أنني إذا أكلت لم أقعد متكئاً على الأوطية والوسائد، كفعل الجبابة، ومن يريد الإكثار من الطعام، لكنني آكل بُلغَةً كما يأكل العبد.

فصل

وكان يأكلُ بأصابعه الثلاث، وهذا أنفع ما يكون من الأكلات، فإن الأكل بأصبع أو أصبعين لا يستلذُّ به الآكل، ولا يُمره، ولا يُشبعه إلا بعد

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤٤) من حديث أنس بن مالك قال: رأيت النبي ﷺ مقعياً يأكل تمرأ، والإقعاء: أن يجلس على أليته ناصباً ساقيه.

طول، ولا تفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها في كل أكلة، فتأخذها على إغماض، كما يأخذ الرجل حقه حبة أو حبتين أو نحو ذلك، فلا يلتذ بأخذه، ولا يسرُّ به، والأكل بالخمسة والراحة يُوجب ازدحام الطعام على آتاه، وعلى المعدة، وربما انسدت الآلات فمات، وتغصب الآلات على دفعه، والمعدة على احتماله، ولا يجد له لذة ولا استمراء، فأنفع الأكل أكله ﷺ، وأكل من اقتدى به بالأصابع الثلاث.

فصل

ومن تدبر أغذيته ﷺ، وما كان يأكله، وجده لم يجمع قط بين لبنٍ وسمك، ولا بين لبنٍ وحامض، ولا بين غذاءين حارَّين، ولا باردَين، ولا لَرَجين، ولا قابضين، ولا مُسهلين، ولا غليظين، ولا مُرخيين، ولا مستحيلين إلى خلط واحد، ولا بين مختلفين كقابض ومسهل، وسريع الهضم وبطيئه، ولا بين شوي وطبيخ، ولا بين طري وقديد، ولا بين لبنٍ وبيض، ولا بين لحم ولبن، ولم يكن يأكل طعاماً في وقت شدة حرارته، ولا طبيخاً باثناً يُسخن له بالغد، ولا شيئاً من الأطعمة العَفِنَة والمالحة، كالكوامخ والمخللات، والملوحات، وكل هذه الأنواع ضار مولد لأنواع من الخروج عن الصحة والاعتدال.

عدم الأكل أو الجمع بين بعض الأطعمة

وكان يصلح ضرر بعض الأغذية ببعض إذا وجد إليه سبيلاً، فيكسرُ حرارة هذا ببرودة هذا، ويؤسِّة هذا برطوبة هذا، كما فعل في القثاء والرطب، وكما كان يأكل التمر بالسَّمَن، وهو الحَيْسُ، ويشربُ نقيع التمر يُلطِّف بك كيموسات الأغذية الشديدة.

تعديل الطعام بضده

وكان يأمر بالعشاء، ولو بكفٍّ من تمر، ويقول: «تَرَكَ العِشَاءِ مَهْرَمَةً»، ذكره الترمذي في «جامعه»، وابن ماجه في

الأمر بالعشاء

«سننه»^(١). وذكر أبو نعيم عنه أنه كان ينهي عن النوم على الأكل، ويذكر عدم النوم على الأكل أنه يُقسي القلب، ولهذا في وصايا الأطباء لمن أراد حفظ الصحة: أن يمشيَ بعد العشاء خُطواتٍ ولو مائة خطوة، ولا ينام عَقِبَهُ، فإنه مضر جداً، وقال مسلموهم: أو يُصلي عَقِيهَ ليستقر الغِذاء بقعر المعدة، فيسهلَ هضمه، ويجودَ بذلك.

ولم يكن من هديه أن يشربَ على طعامه فيفسده، ولا سيما إن كان الماء حاراً أو بارداً، فإنه رديء جداً. قال الشاعر:

لَا تَكُنْ عِنْدَ أَكْلِ سُخْنٍ وَبَرْدٍ وَدُخُولِ الْحَمَّامِ تَشْرَبُ مَاءَ
فَإِذَا مَا اجْتَنَّبْتَ ذَلِكَ حَقًّا لَمْ تَخَفْ مَا حَيَّيْتَ فِي الْجَوْفِ دَاءَ

ويكره شرب الماء عَقِبَ الرياضة، والتعب، وعَقِبَ الجَمَاعِ، وعَقِبَ الطعام وقبله، وعَقِبَ أكل الفاكهة، وإن كان الشربُ عَقِبَ بعضها أسهلَ من بعض، وعقب الحمام، وعند الانتباه من النوم، فهذا كُلُّهُ منافٍ لحفظ الصحة، ولا اعتبار بالعوائد، فإنها طبائع ثوانٍ.

فصل

وأما هديه في الشراب، فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة، فإنه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد، وفي هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدي إلى معرفته إلا أفاضلُ الأطباء، فإن شُرِبَهُ ولعَقَهُ على الريق يُذِيبُ البلغم، ويغسِلُ خَمْلَ المعدة، ويجلِّو لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات،

هدية ﷺ في الشراب

شربه ﷺ العسل
التمزج بالماء البارد
وفوائده

(١) أخرجه الترمذي (١٨٥٧) في الأطعمة: باب ما جاء في فضل العشاء من حديث أنس بن مالك، وفي سننه ضعيف ومجهول، وأخرجه ابن ماجه (٣٣٥٥) في الأطعمة: باب ترك العشاء، من حديث جابر، وفي سننه إبراهيم بن عبد السلام بن عبد الله بن باباه المخزومي، وهو ضعيف.

ويُسَخَّنُهَا بِاعْتِدَالٍ، وَيَفْتَحُ سِدِّدَهَا، وَيَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ بِالْكَبِدِ وَالْكُلَى وَالْمَثَانَةِ، وَهُوَ أَنْفَعُ لِلْمَعْدَةِ مِنْ كُلِّ حَلْوٍ دَخَلَهَا، وَإِنَّمَا يَضُرُّ بِالْعَرَضِ لِصَاحِبِ الصَّفْرَاءِ لِحَدَثِهِ وَحِدَةِ الصَّفْرَاءِ، فَرَبِمَا هَيَّجَهَا، وَدَفَعُ مَضْرَتَهُ لَهُمْ بِالخَلِّ، فَيَعُودُ حَيْثُذُ لَهُمْ نَافِعاً جِداً، وَشَرِبَهُ أَنْفَعُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْرِبَةِ الْمَتَّخِذَةِ مِنَ السُّكَّرِ أَوْ أَكْثَرِهَا، وَلَا سِيَّمَا لَنْ لِمَنْ يَعْتَدُ هَذِهِ الْأَشْرِبَةَ، وَلَا أَلْفَهَا طَبْعَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا شَرِبَهَا لَا تَلَاتِمُهُ مَلَأَمَةُ الْعَسَلِ، وَلَا قَرِيباً مِنْهُ، وَالْمَحْكَمُ فِي ذَلِكَ الْعَادَةُ، فَإِنَّهَا تَهْدِمُ أَصُولاً، وَتَبْنِي أَصُولاً.

وأما الشراب إذا جمع وصفي الحلاوة والبرودة، فمن أنفع شيء للبدن، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة، وللأرواح والقوى، والكبد والقلب، عشق شديد له، واستمداد منه، وإذا كان فيه الوصفان، حصلت به التغذية، وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء، وإيصاله إليها أتم تنفيذ.

مضاعف الماء البارد

والماء البارد رطب يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية، ويرد عليه بدل ما تحلل منها، ويُرَقِّقُ الْغِذَاءَ وَيُنْفِذُهُ فِي الْعُرُوقِ.

هل الماء البارد يغذي البدن؟

واختلف الأطباء: هل يُغْذِي الْبَدْنَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: فَأَثْبَتَتْ طَائِفَةٌ التَّغْذِيَةَ بِهِ بِنَاءً عَلَى مَا يَشَاهِدُونَهُ مِنَ النَّمُوِّ وَالزِّيَادَةِ وَالْقُوَّةِ فِي الْبَدَنِ بِهِ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

قالوا: وَبَيْنَ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ قَدْرٌ مَشْتَرِكٌ مِنْ وَجْهِ عَدِيدَةٍ مِنْهَا: النَّمُوُّ وَالِاغْتِنَاءُ وَالِاعْتِدَالُ، وَفِي النَّبَاتِ قُوَّةٌ حَسَنٌ تُنَاسِبُهُ، وَلِهَذَا كَانَ غِذَاءُ النَّبَاتِ بِالْمَاءِ، فَمَا يُنْكَرُ أَنْ يَكُونَ لِلْحَيَوَانَ بِهِ نَوْعٌ غِذَاءً، وَأَنْ يَكُونَ جِزْءاً مِنْ غِذَائِهِ التَّامِ.

قالوا: وَنَحْنُ لَا نَنْكَرُ أَنْ قُوَّةَ الْغِذَاءِ وَمَعْظَمَهُ فِي الطَّعَامِ، وَإِنَّمَا أَنْكَرْنَا أَنْ لَا يَكُونَ لِلْمَاءِ تَغْذِيَةُ الْبَتَّةِ. قَالَوا: وَأَيْضاً الطَّعَامُ إِنَّمَا يَغْذِي بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَائَةِ، وَلَوْلَاهَا لَمَا حَصَلَتْ بِهِ التَّغْذِيَةُ.

قالوا: ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات، ولا ريب أن ما كان أقرب إلى مادة الشيء، حصلت به التغذية، فكيف إذا كانت مادته الأصلية، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فكيف ننكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق؟.

قالوا: وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرِّيُّ بالماء البارد، تراجعت إليه قواه ونشاطه وحركته، وصبر عن الطعام، وانتفع بالقدر اليسير منه، ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام، ولا يجد به القوة والاعتداء، ونحن لا ننكر أن الماء يُنفذُ الغذاء إلى أجزاء البدن، وإلى جميع الأعضاء، وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به، وإنما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه البتة، ويكاد قوله عندنا يدخل في إنكار الأمور الوجدانية.

من أنكر حصول التغذية
بالماء البارد

وانكرت طائفة أخرى حصول التغذية به، واحتجت بأمر يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به، وأنه لا يقوم مقام الطعام، وأنه لا يزيد في نمو الأعضاء، ولا يخلف عليها بدل ما حللته الحرارة، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية، فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره، ولطافته ورقته، وتغذيته كل شيء بحسبه، وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يُغذي بحسبه، والرائحة الطيبة تُغذي نوعاً من الغذاء، فتغذية الماء أظهر وأظهر.

والمقصود: أنه إذا كان بارداً، وخالطه ما يُحليه كالعسل أو الزبيب، أو التمر أو السكر، كان من أنفع ما يدخل البدن، وحفظ عليه صحته، فلهذا كان أحبُّ الشراب إلى رسول الله ﷺ الباردة الحلوة. والماء الفاتر ينفخ، ويفعل ضد هذه الأشياء.

منافع الماء البات

ولما كان الماء البات أنفع من الذي يُشرب وقت استقائه، قال النبي ﷺ وقد دخل إلى حائط أبي الهيثم بن التيهان: «هَلْ مِنْ مَاءٍ بَاتٍ فِي

شَنَّة؟» فأثاه به، فشرب منه، رواه البخاري ولفظه: «إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَاءٌ بَاتَ فِي شِنَّةٍ وَإِلَّا كَرَعْنَا»^(١).

والماء البائت بمنزلة العجين الخمير، والذي شرب لوقته بمنزلة الفطير، وأيضاً فإن الأجزاء الترابية والأرضية تُفارقه إذا بات، وقد ذكر أن النبي ﷺ كان يُسْتَعَذَّبُ لَهُ الْمَاءُ، ويختار البائت منه. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يُسْتَقَى لَهُ الْمَاءُ الْعَذْبُ مِنْ بئر السقيا^(٢).

والماء الذي في القرب والشنان، ألدُّ من الذي يكون في آنية الفخار والأحجار وغيرهما، ولا سيما أسقية الأدم، ولهذا التمس النبي ﷺ ماءً بات في شنة دون غيرها من الأواني، وفي الماء إذا وضع في الشنان، وقرب الأدم خاصة لطيفة لما فيها من المسام المفتحة التي يرشح منها الماء، ولهذا كان الماء في الفخار الذي يرشح ألد منه، وأبرد في الذي لا يرشح، فصلاة الله وسلامه على أكمل الخلق، وأشرفهم نفساً، وأفضلهم هدياً في كل شيء، لقد دل أمته على أفضل الأمور وأنفعها لهم في القلوب والأبدان، والدنيا والآخرة.

الماء الذي في القرب
والشنان ألد من الذي في
آنية الفخار والأحجار
وغيرهما

قالت عائشة: كان أحبُّ الشرابِ إلى رسول الله ﷺ الحلوَ البارد^(٣). وهذا يحتمل أن يريد به الماء العذب، كماء العيون والآبار

معنى «الحلو البارد»

- (١) أخرجه البخاري ٧٧/١٠ في الأشربة: باب الكرع في الحوض.
- (٢) أخرجه أبو داود (٣٧٣٥) في الأشربة: باب في إيكاء الآنية، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ص ٢٤٥ عن عائشة قالت: إن النبي ﷺ كان يستعذب له الماء من بئر سقيا، وسنده حسن، وصححه الحاكم ١٣٨/٤، وأقره الذهبي، وقال الحافظ في «الفتح» سنده جيد، والسقيا: مكان من طرف الحرّة، والحرّة: أرض بضواحي المدينة ذات حجارة سود، وطرفها: آخرها.
- (٣) أخرجه أحمد ٣٨/٦ و ٤٠، والترمذي في «الجامع» (١٨٩٦) وفي «الشمائل» ٣٠٢/١، وإسناده صحيح، وصححه الحاكم ١٣٧/٤، ووافقه الذهبي، وفي =

الحلوة، فإنه كان يُستعذب له الماء. ويحتملُ أن يريد به الماء الممزوج بالعلس، أو الذي نُقِعَ فيه التمرُ أو الزبيب. وقد يُقال — وهو الأظهر — : يعمهما جميعاً.

معنى الكرع وبيان
الاختلاف فيه

وقوله في الحديث الصحيح: «إن كان عندك ماء بات في شن وإلا كرعنا»، فيه دليل على جواز الكرع، وهو الشرب بالفم من الحوض والمقراة ونحوها، وهذه — والله أعلم — واقعة عين دعت الحاجةُ فيها إلى الكرع بالفم، أو قاله مبيّناً لجوازه، فإن من الناس مَنْ يكرهه، والأطباء تكادُ تحرّمه، ويقولون: إنه يضر بالمعدة، وقد روي في حديث لا أدري ما حاله عن ابن عمر، أن النبي ﷺ نهانا أن نشرب على بطوننا، وهو الكرع، ونهانا أن نغترف باليد الواحدة وقال: «لا يَلْغُ أَحَدُكُمْ كَمَا يَلْغُ الْكَلْبُ، وَلَا يَشْرَبُ بِاللَّيْلِ مِنْ إِنَاءٍ حَتَّى يَخْتَبِرَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّرًا»^(١).

وحديث البخاري أصح من هذا، وإن صحَّ، فلا تعارض بينهما، إذ لعل الشرب باليد لم يكن يمكن حينئذ، فقال: وإلا كرعنا، والشرب بالفم إنما يضر إذا انكبَّ الشاربُ على وجهه وبطنه، كالذي يشربُ من النهر والغدير، فأما إذا شرب منتصباً بفمه من حوض مرتفع ونحوه، فلا فرق بين أن يشرب بيده أو بفمه.

فصل

بيان الاختلاف في جواز
الشرب قائماً

وكان من هديه الشربُ قاعداً، هذا كان هديّة المعتاد، وصحَّ عنه أنه

= الباب عن ابن عباس عند أحمد ٣٣٨/١ أن النبي ﷺ سئل: أيّ الشراب أطيب؟ قال: الحلو البارد، وسنده حسن في الشواهد.
(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٣١) في الأشربة: باب الشرب بالأكف والكرع، وفي سنده بقية، وهو مدلس، وقد عنعن، والراوي عنه — وهو زياد بن عبد الله — لا يعرف.

نهى عن الشرب قائماً، وصح عنه أنه أمر الذي شرب قائماً أن يستقيء،
وصح عنه أنه شرب قائماً.

قالت طائفة: هذا ناسخ للنهي، وقالت طائفة: بل مبين أن النهي
ليس للتحريم، بل للإرشاد وترك الأولى، وقالت طائفة: لا تعارض بينهما
أصلاً، فإنه إنما شرب قائماً للحاجة، فإنه جاء إلى زمزم، وهم يستقون
منها، فاستقى فناولوه الدلو، فشرب وهو قائم، وهذا كان موضع حاجة.

آفات الشرب قائماً

وللشرب قائماً آفات عديدة منها: أنه لا يحصل به الرئي التام، ولا
يستقر في المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء، وينزل بسرعة وحدة
إلى المعدة، فيخشى منه أن يبرد حرارتها، ويوشوها، ويسرع النفوذ إلى
أسفل البدن بغير تدريج، وكل هذا يضر بالشارب، وأما إذا فعله نادراً أو
لحاجة، لم يضره، ولا يعترض بالعوائد على هذا، فإن العوائد طبائع
ثوان، ولها أحكام أخرى، وهي بمنزلة الخارج عن القياس عند الفقهاء.

فصل

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس بن مالك، قال: كان
رسول الله ﷺ يتنفس في الشراب ثلاثاً، ويقول: «إنه أزوى وأمرأ
وأبرأ»^(١).

تنفسه في الشراب
ثلاثاً

الشراب في لسان الشارع وحملة الشرع: هو الماء، ومعنى تنفسه
في الشراب: إبانته القدح عن فيه، وتنفسه خارجه، ثم يعود إلى الشراب،
كما جاء مصرحاً به في الحديث الآخر: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في
القدح، ولكن ليئين الإناء عن فيه»^(٢).

-
- (١) أخرجه مسلم (٢٠٢٨) في الأشربة: باب الشرب من زمزم قائماً.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٤٢٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، ولفظه «إذا شرب
أحدكم فلا يتنفس في الإناء، فإذا أراد أن يعود فليئح الإناء ثم ليعد إن كان =

وفي هذا الشرب حكم جمّة، وفوائد مهمة، وقد نبه ﷺ على مجامعها بقوله: «إنه أروى وأمرأ وأبرأ» فأروى: أشدُّ رِيّاً، وأبلغه وأنفعه، وأبرأ: أفعل من البرء، وهو الشفاء، أي يُبرئ من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات، فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه، والثالثة ما عجزت الثانية عنه، وأيضاً فإنه أسلم لحرارة المعدة، وأبقى عليها من أن يهجم عليها الباردُ وهلة واحدة، ونهلة واحدة.

وأيضاً فإنه لا يروي لمصادفته لحرارة العطش لحظة، ثم يُقلع عنها، ولما تُكسر سورُتها وحِدَّتُها، وإن انكسرت لم تبطل بالكلية بخلاف كسرها على التمهّل والتدريج.

وأيضاً فإنه أسلم عاقبة، وآمن غائلة من تناول جميع ما يُروي دفعة واحدة، فإنه يخاف منه أن يطفئ الحرارة الغريزية بشدة برده، وكثرة كميته، أو يُضعفها فيؤدي ذلك إلى فساد مزاج المعدة والكبد، وإلى أمراض رديئة، خصوصاً في سكان البلاد الحارة، كالحجاز واليمن ونحوهما، أو في الأزمنة الحارة كشدة الصيف، فإن الشرب وهلة واحدة مخوفٌ عليهم جداً، فإن الحار الغريزي ضعيف في بواطن أهلها، وفي تلك الأزمنة الحارة.

يريدُ قال البوصيري في «الزوائد» ورقة (٢٣١): إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وأخرج مالك في «الموطأ» ٩٢٥/٢، والترمذي (١٨٨٨)، وأحمد ٣٢٦/٣، والدارمي ١١٩/٢، من حديث أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ نهى عن النخخ في الشراب، فقال له رجل: يا رسول الله! إني لا أروى من نفس واحد، فقال رسول الله ﷺ: «فأبِنِ القَدَحِ مِنْ فَيْكِ ثُمَّ تَنَفَّسْ» فقال: فإنني أرى القذاة فيه، قال: «فأهْرِقْهَا»، وإسناده صحيح، وأخرج البخاري ٢٢١/١، ٢٢٢، ومسلم (٢٦٧) (٦٥) من حديث أبي قتادة مرفوعاً: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء».

معنى «أمرأ»

وقوله: «وأمرأ»: هو أفعل من مَرِيَء الطعام والشراب في بدنه: إذا دخله، وخالطه بسهولة ولذة ونفع. ومنه: ﴿فكَلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، هَنِيئًا في عاقبته، مَرِيئًا في مذاقه. وقيل: معناه أنه أسرع انحذاراً عن المريء لسهولته وخفته عليه، بخلاف الكثير، فإنه لا يسهل على المريء انحذاره.

آفات الشرب نهلة واحدة

ومن آفات الشرب نهلة واحدة أنه يُخاف منه الشَّرْق بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه، فيغصّ به، فإذا تنفّس رويداً، ثم شرب، أمن من ذلك.

فوائد تكرار الشرب

ومن فوائده: أن الشارب إذا شرب أول مرة تصاعد البخارُ الدخاني الحارُّ الذي كان على القلب والكبد لورود الماء البارد عليه، فأخرجته الطبيعة عنها، فإذا شرب مرة واحدة، اتفق نزول الماء البارد، وصعود البخار، فيتدافعان ويتعالجان، ومن ذلك يحدث الشرق والغصّة، ولا يتهدأ الشاربُ بالماء، ولا يُمرته، ولا يتم رِيئه. وقد روى عبد الله بن المبارك، والبيهقي، وغيرهما عن النبي ﷺ: «إِذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَمِصَّ الْمَاءَ مَصًّا، وَلَا يَعْْبَ عَبًّا، فَإِنَّهُ مِنَ الْكَبَادِ»^(١).

ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها

والكباد - بضم الكاف وتخفيف الباء - هو وجع الكبد، وقد علم بالتجربة أن ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها ويضعف حرارتها، وسبب ذلك المضادة التي بين حرارتها، وبين ما ورد عليها من كيفية المبرود وكميته. ولو ورد بالتدريج شيئاً فشيئاً، لم يضاد حرارتها، ولم يضعفها، وهذا مثاله صبُّ الماء البارد على القدر، وهي تفور، لا يضرها صبُّه قليلاً قليلاً. وقد روى الترمذي في «جامعه» عنه ﷺ: «لَا تَشْرَبُوا نَفْسًا وَاحِدًا كَشْرِبِ

(١) ضعيف لا يصح.

الْبَعِيرِ، وَلَكِنْ اشْرَبُوا مِنِّي وَثَلَاثَ، وَسَمُّوا إِذَا أَنْتُمْ شَرِبْتُمْ وَاحْمَدُوا إِذَا أَنْتُمْ فَرَعْتُمْ»^(١).

وللتسمية في أول الطعام والشراب، وحمد الله في آخره تأثيرٌ عجيب في نفعه واستمرائه، ودفع مضرته.

قال الإمام أحمد: إذا جمع الطعام أربعاً، فقد كمل: إذا ذَكَرَ اسم الله كمال الطعام في التسمية والحمد وتكثر الأيدي وإن يكون حلاً

فصل

وقد روى مسلم في «صحيحه»: من حديث جابر بن عبد الله، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «عَطُوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السَّقَاءَ، فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ عِطَاءٌ، أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وَكَاءٌ إِلَّا وَقَعَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الدَّاءِ»^(٢). وهذا مما لا تناله علومُ الأطباءِ ومعارفهم، وقد عرفه مَنْ عرفه عقلاء الناس بالتجربة. قال الليث بن سعد أحدُ رواة الحديث: الأعاجم عندنا يتقون تلك الليلة في السنة في كانوا الأول منها.

وصح عنه أنه أمرَ بتخميرِ الإناءِ وَلَوْ أَنْ يَغْرِضَ عَلَيْهِ عُوْدًا^(٣). وفي عرض

(١) أخرجه الترمذي (١٨٨٦) في الأشربة: باب ما جاء في النفس من الإناء، وفي سننه يزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي، وهو ضعيف، وشيخه فيه مجهول، ولذا ضعفه الحافظ في «الفتح» ٨١/١٠.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠١٤) في الأشربة: باب الأمر بتغطية الإناء.

(٣) أخرجه البخاري ٧٧/١٠ في الشرب: باب تغطية الإناء، ومسلم (٢٠١٢) (٩٧)، من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ جَنَحَ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكْفُوا صَبَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَتَشَرُّ حَيْثُذُ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ، فَخَلُّوهُمْ وَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مَغْلَقًا، وَأَوْكُوا قُرْبَكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَخَمَرُوا أَنْيَتَكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ وَلَوْ أَنْ تَعْرَضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا، =

العود عليه من الحكمة، أنه لا ينسى تخميره، بل يعتاده حتى بالعود، وفيه: أنه ربما أراد الديقب أن يسقط فيه، فيمر على العود، فيكون العودُ جسراً له يمنعه من السقوط فيه.

وصح عنه: أنه أمر عند إيكاء الإناء بذكر اسم الله، فإن ذكر اسم الله عند تخمير الإناء يطرد عنه الشيطان، وإيكأؤه يطرد عنه الهوام، ولذلك أمر بذكر اسم الله في هذين الموضوعين لهذين المعنيين.

وروى البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب من في السقاء^(١).

النهي عن الشرب من فم السقاء والآداب المترتبة عليه

وفي هذا آداب عديدة، منها: أن تردد أنفاس الشارب فيه يكسبه زهومة ورائحة كريهة يُعاف لأجلها.

ومنها: أنه ربما غلب الداخل إلى جوفه من الماء، فتضرر به.

ومنها: أنه ربما كان فيه حيوان لا يشعر به، فيؤذيه.

ومنها: أن الماء ربما كان فيه قذاة أو غيرها لا يراها عند الشرب، فتلج جوفه.

ومنها: أن الشرب كذلك يملأ البطن من الهواء، فيضيق عن أخذ حظه من الماء، أو يزاحمه، أو يؤذيه، ولغير ذلك من الحكم.

فإن قيل: فما تصنعون بما في «جامع الترمذي»: أن رسول الله ﷺ دعا بإداوة يوم أحد، فقال: «أخنت فم الإداوة»، ثم شرب منها من فيها^(٢)؟ قلنا:

ضعف حديث الشرب من فم الإداوة

= وأطفنوا مصايحكم.

(١) أخرجه البخاري ٧٩/١٠ في الأشربة: باب الشرب من فم السقاء، وأخرجه أيضاً من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود (٣٧٢١) في الأشربة: باب في اختناث الأسقية، وأخرجه الترمذي (١٨٩٢) بلفظ: «رأيت النبي ﷺ قام إلى قربة معلقة فحشها ثم =

نكتفي فيه بقول الترمذي: هذا حديثٌ ليس إسناده بصحيح، وعبد الله بن عمر العمري يُضَعَّفُ من قبل حفظه، ولا أدري سمع من عيسى أو لا انتهى. يريد عيسى بن عبد الله الذي رواه عنه، عن رجل من الأنصار.

فصل

وفي «سنن أبي داود» من حديث أبي سعيد الخُدري، قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الشُّربِ مِنْ ثُلْمَةِ القَدَحِ، وَأَنْ يَنْفُخَ فِي الشَّرَابِ»^(١)، وهذا من الأدب التي تَتِمُّ بها مصلحةُ الشارب، فإن الشُّربَ مِنْ ثُلْمَةِ القَدَحِ فِيهِ عِدَّةُ مفاسد: أحدها: أن ما يكون على وجه الماء من قذى أو غيره يجتمع إلى الثُّلْمَةِ بخلاف الجانب الصحيح.

الثاني: أنه ربما شوَّش على الشارب، ولم يتمكن من حسن الشرب من الثُّلْمَةِ.

الثالث: أن الوسخ والزُّهومة تجتمع في الثُّلْمَةِ، ولا يصل إليها الغسل، كما يصل إلى الجانب الصحيح.

الرابع: أن الثُّلْمَةَ محلُّ العيب في القَدَحِ، وهي أَرْدَأُ مكان فيه، فينبغي تجنُّبه، وقصد الجانب الصحيح، فإن الرديء من كل شيء لا خير فيه، ورأى بعض السلف رجلاً يشتري حاجة رديئة، فقال: لا تفعل أما علمت أن الله نزع البركة من كل رديء.

= شرب من فيها». والاختناث: أن يثني رؤوسها ويعطفها ثم يشرب منها، ومن هذا سمي المخنث، وذلك لتكسره وتثنيه.

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٢٢) في الأشربة: باب الشرب من ثلثة القدح، وأحمد ٨٠/٣، وفي سننه قره بن عبد الرحمن، وهو ضعيف، وباقي رجاله ثقات.

الخامس: أنه ربما كان في الثلثة شق أو تحذيد يجرح فم الشارب، ولغير هذه من المفاسد.

وأما النفخ في الشراب، فإنه يَكْسِبُهُ من فم النافخ رائحة كريهة يُعَاف لأجلها، ولا سيما إن كان متغيرَ الفم. وبالجملة: فأنفاس النافخ تُخالطه، ولهذا جمع رسولُ الله ﷺ بين النهي عن التنفس في الإِناء والنفخ فيه في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُتَنَفَّسَ في الإِناءِ، أو يُنْفَخَ فيه ^(١).

مفاسد النفخ في الشراب

فإن قيل: فما تصنعون بما في «الصحيحين» من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ كان يتنفس في الإِناء ثلاثاً؟ ^(٢) قيل: نُقابله بالقبول والتسليم، ولا مُعارضة بينه وبين الأول، فإن معناه أنه كان يتنفس في شربه ثلاثاً، وذكر الإِناء لأنه آلة الشرب، وهذا كما جاء في الحديث الصحيح: أن إبراهيم ابن رسول الله ﷺ مات في الثدي ^(٣)، أي: في مدة الرضاع.

كان يتنفس في الشرب ولا يتنفس في الإِناء

فصل

وكان ﷺ يشرب اللبن خالصاً تارةً، ومشوباً بالماء أخرى. وفي شرب اللبن الحلو في تلك البلاد الحارة خالصاً ومشوباً نفعٌ عظيم في حفظ الصحة، وترطيب البدن، وريِّ الكبد، ولا سيما اللبن الذي ترعى دوابُّه الشَّيخَ والقَيْصُومَ والخُرَامِيَّ

شرب اللبن خالصاً ومشوباً بالماء ومناقحه

(١) أخرجه الترمذي (١٨٨٩)، وأبو داود (٣٧٢٨)، وابن ماجه (٣٤٢٨) و (٣٤٢٩) وأحمد (١٩٠٧)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٨) في الأشربة: باب في الشرب من ماء زمزم قائماً، واللفظ له، ورواه البخاري ٨١/١٠ من حديث ثمامة بن عبد الله قال: كان أنس يتنفس في الإِناء مرتين أو ثلاثاً، وزعم أن النبي ﷺ كان يتنفس ثلاثاً.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٦) في الفضائل: باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، من حديث أنس، وتمامه . . . وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة.

وما أشبهها، فإن لبنها غذاء مع الأغذية، وشرابٌ مع الأشربة، ودواء مع الأدوية وفي «جامع الترمذي» عنه ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإِذَا سَقَى لَبَنًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزَىءُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ». قال الترمذي: هذا حديث حسن^(١).

فصل

الانتباز في الماء

وثبت في «صحيح مسلم» أنه ﷺ كان يُبَدُّ لَهُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَيَشْرَبُهُ إِذَا أَصْبَحَ يَوْمَهُ ذَلِكَ، وَاللَّيْلَةَ الَّتِي تَجِيءُ، وَالغَدَّ، وَاللَّيْلَةَ الْآخِرَى، وَالغَدَّ إِلَى الْعَصْرِ، فَإِنْ بَقِيَ مِنْهُ شَيْءٌ سَقَاهُ الْخَادِمَ، أَوْ أَمَرَ بِهِ فَصُبَّ^(٢). وهذا النبيذ: هو ما يُطْرَحُ فِيهِ تَمْرٌ يُحْلِيهِ، وَهُوَ يَدْخُلُ فِي الْغِذَاءِ وَالشَّرَابِ، وَلَهُ نَفْعٌ عَظِيمٌ فِي زِيَادَةِ الْقُوَّةِ، وَحِفْظِ الصَّحَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ يَشْرَبُهُ بَعْدَ ثَلَاثِ خَوْفًا مِنْ تَغْيِيرِهِ إِلَى الْإِسْكَارِ.

فصل

في تدبيره لأمر الملبس

وكان من أتم الهدى، وأنفعه للبدن، وأخفَّه عليه، وأيسره لبساً وخلعاً، وكان أكثر لبسه الأردية والأزر، وهي أخفُّ على البدن من غيرها، وكان يلبسُ القميص، بل كان أحبَّ الثياب إليه. وكان هديُّه في لبسه لما يلبسُه أنْفَعُ شَيْءٍ لِلْبَدَنِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُطِيلُ أَكْمَامَهُ، وَيُوسِعُهَا، بَلْ كَانَتْ كَمِ قَمِيصِهِ إِلَى الرَّسْغِ لَا

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٥١) في الدعوات: باب ما يقول إذا أكل طعاماً، وأبو داود (٣٧٣٠) في الأشربة: باب ما يقول إذا شرب لبناً، وأحمد ٢٢٥/١ و ٢٨٤، وفي سننه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف، وعمر بن حرملة مجهول، لكن له طريق آخر عند ابن ماجه (٣٣٢٢) يتقوى به، فيصير الحديث حسناً.
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٠٤) في الأشربة: باب إباحة النبيذ الذي لم يشتم.

يُجاوز اليد، فتشقى على لابسها، وتمنعهُ خِفة الحركة والبطش، ولا تقصر عن هذه، فتبرز للحر والبرد، وكان ذيلُ قميصه وإزاره إلى أنصاف الساقين لم يتجاوزِ الكعبين، فيؤذي الماشي ويؤوده، ويجعله كالمقيد، ولم يقصُر عن عضلة ساقيه، فتتكشف ويتأذى بالحر والبرد، ولم تكن عِمامته بالكبيرة التي تؤذي الرأس حملُها، ويضعفه ويجعله عرضة للضعف والآفات، كما يشاهد من حال أصحابها، ولا بالصغيرة التي تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد، بل وسطاً بين ذلك، وكان يُدخلها تحت حنكه، «وفي ذلك فوائدٌ عديدة: فإنها تقي العنق الحر والبرد، وهو أثبت لها، ولا سيما عند ركوب الخيل والإبل، والكرِّ والفرِّ، وكثير من الناس اتخذ الكلاليب عوضاً عن الحنك، ويا بُد ما بينهما في النفع والزينة، وأنت إذا تأملت هذه اللبسة وجدتها من أنفع اللبسات وأبلغها في حفظ صحة البدن وقوته، وأبعدها من التكلف والمشقة على البدن.

وكان يلبسُ الخفاف في السفر دائماً، أو أغلب أحواله لحاجة الرّجلين إلى ما يقيهما من الحر والبرد، وفي الحضر أحياناً.

وكان أحبُّ ألوان الثياب إليه البياض، والحِبرَة، وهي البرود المحبّرة، ولم يكن من هديه لبس الأحمر، ولا الأسود، ولا المصبَّغ، ولا المصقول. وأما الحُلّة الحمراء التي لبسها، فهي الرداء اليماني الذي فيه سوادٌ وحُمرة وبياض، كالحُلّة الخضراء، فقد لبس هذه وهذه، وقد تقدم تقريرُ ذلك، وتغليطُ من زعم أنه لبس الأحمر القاني بما فيه كفاية.

فصل

في تدبيره لأمر المسكن

لما علم ﷺ أنه على ظهرِ سيرٍ، وأن الدنيا مرحلةٌ مسافرٍ ينزل فيها مُدَّة عمره، ثم ينتقلُ عنها إلى الآخرة، لم يكن من هديه وهدي أصحابه، ومن تبعه

الاعتناء بالمساكن وتشبيدها، وتعليقها وزخرفتها وتوسيعها، بل كانت من أحسن منازل المسافرين تقي الحر والبرد، وتستتر عن العيون، وتمنع من ولوج الدواب، ولا يُخاف سقوطها لفرط ثقلها، ولا تُعشش فيها الهوام لسعتها ولا تعتور عليها الأهوية والرياح المؤذية لارتفاعها، وليست تحت الأرض فتؤدي ساكنها، ولا في غاية الارتفاع عليها، بل وسط، وتلك أعدل المساكن وأنفعها، وأقلها حراً وبرداً، ولا تضيق عن ساكنها، فينحصر، ولا تفضل عنه بغير منفعة ولا فائدة، فتأوي الهوام في خلوها، ولم يكن فيها كُفٌّ تؤدي ساكنها برائحتها، بل رائحتها من أطيب الروائح لأنه كان يُحب الطيب، ولا يزال عنده، وريحه هو من أطيب الرائحة، وعرقه من أطيب الطيب، ولم يكن في الدار كَيْفٌ تظهر رائحته، ولا ريب أن هذه من أعدل المساكن وأنفعها وأوقفها للبدن، وحفظ صحته.

فصل

في تدبيره لأمر النوم واليقظة

من تدبّر نومه ويقظته ﷺ، وجدّه أعدل نوم، وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى، فإنه كان ينام أوّل الليل، ويستيقظ في أول النصف الثاني، فيقوم ويستاك، ويتوضأ ويصلي ما كتّب الله له، فيأخذ البدن والأعضاء، والقوى حظّها من النوم والراحة، وحظها من الرياضة مع وفور الأجر، وهذا غاية صلاح القلب والبدن، والدنيا والآخرة.

ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج إليه، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، وكان يفعلُه على أكمل الوجوه، فينام إذا دعت الحاجة إلى النوم على شقه الأيمن، ذاكراً لله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلىء البدن من الطعام والشراب، ولا مباشرٍ بجنبه الأرض، ولا متخذٍ للفرش المرتفعة، بل له ضجّاج من أدم حشوه ليف، وكان يضطجع على الوسادة، ويضع يده تحت خده أحياناً.

ونحن نذكر فصلاً في النوم والنافع منه والضار، فنقول:

النوم حالة للبدن يتبعها غور الحرارة الغريزية والقوى إلى باطن البدن لطلب الراحة، وهو نوعان: طبيعي وغير طبيعي. فالطبيعي: إمساك القوى النفسانية عن أفعالها، وهي قوى الحس والحركة الإرادية، ومتى أمسكت هذه القوى عن تحريك البدن استرخى، واجتمعت الرطوبات والأبخرة التي كانت تتحلل وتتفرق بالحركات واليقظة في الدماغ الذي هو مبدأ هذه القوى، فيتخدر ويسترخي، وذلك النوم الطبيعي.

نوعا النوم
النوم الطبيعي

وأما النوم غير الطبيعي، فيكون لعرض أو مرض، وذلك بأن تستولي الرطوبات على الدماغ استيلاء لا تقدر اليقظة على تفريقها، أو تصعد أبخرة رطبة كثيرة كما يكون عقيب الامتلاء من الطعام والشراب، فتثقل الدماغ وترخيه، فيتخدر، ويقع إمساك القوى النفسانية عن أفعالها، فيكون النوم.

النوم غير الطبيعي

وللنوم فائدتان جليلتان، إحداهما: سكون الجوارح وراحتها مما يعرض لها من التعب، فيريح الحواس من نصب اليقظة، ويُريل الإعياء والكلال.

فائدتا النوم

والثانية: هضم الغذاء، ونضح الأخلاط لأن الحرارة الغريزية في وقت النوم تغور إلى باطن البدن، فتعين على ذلك، ولهذا يبرد ظاهره ويحتاج النائم إلى فضل دثار.

وأنفع النوم: أن ينام على الشق الأيمن، ليستقر الطعام بهذه الهيئة في المعدة استقراراً حسناً، فإن المعدة أميل إلى الجانب الأيسر قليلاً، ثم يتحول إلى الشق الأيسر قليلاً ليسرع الهضم بذلك لاستمالة المعدة على الكبد، ثم يستقر نومه على الجانب الأيمن، ليكون الغذاء أسرع انحداراً عن المعدة، فيكون النوم على الجانب الأيمن بدءاً نومه ونهايته، وكثرة النوم على الجانب الأيسر مضر بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه، فتنصب إليه المراد.

انفع كصفات النوم

وأردأ النوم النوم على الظهر، ولا يضر الاستلقاء عليه للراحة من غير

أردأ نوعيات النوم

نوم، وأردأ منه أن ينام منبطحاً على وجهه، وفي «المسند» و «سنن ابن ماجه»
عن أبي أمامة قال: مر النبي ﷺ على رجلٍ نائم في المسجد منبطح على
وجهه، فصرَّ به برجله، وقال: «قُمْ أَوْ اقْعُدْ، فَإِنَّهَا نَوْمَةٌ جَهَنَّمِيَّةٌ»^(١).

قال أبقراط في كتاب «التقدمة»: وأما نوم المريض على بطنه من غير
أن يكون عادته في صحته جرت بذلك، يدل على اختلاط عقل، وعلى ألم
في نواحي البطن، قال الشراح لكتابه: لأنه خالف العادة الجيدة إلى هيئة
ردیئة من غير سبب ظاهر ولا باطن.

منافع النوم المعتدل

والنوم المعتدل ممكن للقوى الطبيعية من أفعالها، مريح للقوة
النفسانية، مكثر من جوهر حاملها، حتى إنه ربما عاد بإرخائه مانعاً من تحلل
الأرواح.

مفاسد نوم النهار
وبخاصة آخره

ونوم النهار رديء يُورث الأمراض الرطوية والنوازل، ويُفسد اللون،
ويورث الطُّحَال، ويُرخي العصب، ويكسل، ويُضعف الشهوة إلا في الصَّيفِ
وقت الهاجرة، وأردؤه نومٌ أول النهار، وأردأ منه النوم آخره بعد العصر،
ورأى عبد الله بن عباس ابناً له نائماً نومة الصُّبْحَةِ، فقال له: قم، أتنام في
الساعة التي تقسم فيها الأرزاق.؟

وقيل: نوم النهار ثلاثة: خُلِقَ، وحُرِقَ، وحُمِقَ. فالخلق: نومة
الهاجرة، وهي خلق رسول الله ﷺ. والحرق: نومة الضحى، تشغل عن أمر
الدنيا والآخرة. والحمق: نومة العصر. قال بعض السلف: من نام بعد

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧٢٥) في الأدب: باب النهي عن الاضطجاع على الوجه.
وسنده ضعيف، وفي الباب عن أبي هريرة قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً مضطجعاً
عل بطنه فقال: «إن هذه ضجعة لا يحبها الله»، أخرجه أحمد ٢/٢٨٧ و ٣٠٤،
والترمذي (٢٧٦٩)، وسنده حسن، وله شاهد من حديث يعيش بن طخفة عند أبي
داود (٥٠٤٠) وابن ماجه (٧٥٢) و (٣٧٢٧)، وسنده قوي.

العصر، فاختلِسَ عقله، فلا يلومنَّ إلا نفسه. وقال الشاعر:

أَلَا إِنَّ نَوْمَاتِ الضُّحَى تُوْرَتْ الْفَتَى خَبَالاً وَنَوْمَاتِ الْعُصَيْرِ جُنُونٌ

ونومُ الضُّبْحَةِ يمنع الرزق، لأن ذلك وقت تطلب فيه الخليفةُ أَرْزَاقَهَا، وهو وقت قسمة الأرزاق، فنومه حرمانٌ إلا لعارضٍ أو ضرورة، وهو مضر جداً بالبدن لإرخائه البدن، وإفساده للفضلات التي ينبغي تحليلها بالرياضة، فيحدث تكسراً وعيًّا وضعفًا. وإن كان قبل التبرز والحركة والرياضة وإشغال المعدة بشيء، فذلك الداء العضال المولد لأنواع من الأدوية.

مفاسد نوم الصبحة

والنوم في الشمس يُثير الداء الدفين، ونوم الإنسان بعضه في الشمس، وبعضه في الظل رديء، وقد روى أبو داود في «سننه» من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الشَّمْسِ فَقَلَّصْ عَنْهُ الظِّلَّ، فَصَارَ بَعْضُهُ فِي الشَّمْسِ، وَبَعْضُهُ فِي الظِّلِّ فَلْيَقُمْ»^(١).

مفاسد النوم في الشمس
أو بعضه في الشمس

وفي «سنن ابن ماجه» وغيره من حديث بريدة بن الحُصيب، أن رسول الله ﷺ نهى أن يقعد الرجلُ بين الظلِّ والشمس، وهذا تنبيه على منع النوم بينهما.

وفي «الصحيحين» عن البراء بن عازب، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَتَيْتَ مَضَجَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَسْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَقَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَالْجَأْتُ

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٢١) في الأدب: باب في الجلوس بين الظل والشمس، وسنده ضعيف لجهالة الوسطة بين ابن المنكدر وأبي هريرة، وأخرجه أحمد ٣٨٣/٢، وإسناده صحيح إن صح سماع ابن المنكدر من أبي هريرة، وله شاهد بسند قوي عند أحمد ٤١٣/٣ من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ بلفظ: «نهى أن يجلس بين الضح والظل» وقال: مجلس الشيطان، ورواه الحاكم من طريق أخرى ٢٧١/٤ وسمى الصحابي أبا هريرة وصححه ووافقه الذهبي، وآخر من حديث بريدة عند ابن ماجه (٣٧٢٢)، وسنده حسن، وهو الذي سيذكره المصنف فيما بعد.

ظَهَرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَمَلَجًا وَلَا مَنَجًا مِنْكَ، إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ
الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ كَلَامِكَ، فَإِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ،
مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ»^(١).

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ إِذَا صَلَّى رَكَعَتِي
الْفَجْرِ - يَعِينُ سِنَّهَا - اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ^(٢).

الحكمة من النوم على
الجانب الأيمن

وقد قيل: إن الحكمة في النوم على الجانب الأيمن، أن لا يستغرق النائم
في نومه، لأن القلب فيه ميل إلى جهة اليسار، فإذا نام على جنبه الأيمن، طلب
القلبُ مستقره من الجانب الأيسر، وذلك يمنع من استقرار النائم واستقاله في
نومه، بخلاف قراره في النوم على اليسار، فإنه مستقره، فيحصل بذلك الدعة
التامة، فيستغرق الإنسان في نومه، ويستثقل، فيفوته مصالح دينه ودنياه.

فوائد الدعاء قبل النوم

ولما كان النائم بمنزلة الميت، والنوم أخو الموت - ولهذا يستحيل على
الحي الذي لا يموت، وأهل الجنة لا ينامون فيها - كان النائم محتاجاً إلى من
بحرس نفسه، ويحفظها مما يعرض لها من الآفات، ويحرسُ بدنه أيضاً من
طوارق الآفات، وكان ربُّه وفاطره تعالى هو المتولي لذلك وحده. علم النبي ﷺ
النائم أن يقول كلمات التفويض والالتجاء، والرغبة والرهبة، ليستدعي بها كمال
حفظ الله له، وحراسته لنفسه وبدنه، وأرشده مع ذلك إلى أن يستدكر الإيمان،
وينام عليه، ويجعل التكلم به آخر كلامه، فإنه ربما توفاه الله في منامه، فإذا كان
الإيمان آخر كلامه دخل الجنة، فتضمن هذا الهدى في المنام مصالح القلب
والبدن، والروح في النوم واليقظة، والدنيا والآخرة، فصلواتُ الله وسلامه على
من نالت به أمته كل خير.

(١) أخرجه البخاري ٩٣/١١، ٩٥ في ودب: باب الضجع على الشق الأيمن، ومسلم

(٢٧١٠) في الذكر والدعاء: باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥/٣ في التهجد: باب الضجعة على الشق الأيمن بعد ركعتي
الفجر.

وقوله: «أسلمت نفسي إليك»، أي: جعلتها مسلمة لك تسليم العبد المملوك نفسه إلى سيده ومالكه. وتوجيه وجهه إليه يتضمّن إقباله بالكلية على ربه، وإخلاص القصد والإرادة له، وإقراره بالخضوع والذل والانقياد، قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ، وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٢٠]. وذكر الوجه إذ هو أشرف ما في الإنسان، ومجمع الحواس، وأيضاً ففيه معنى التوجه والقصد من قوله:

اسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْباً لَسْتُ مُخَصِّصَهُ رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ^(١)

وتفويض الأمر إليه ردهً إلى الله سبحانه، وذلك يُوجب سكون القلب وطمانيته، والرضى بما يقضيه ويختاره له مما يحبه ويرضاه، والتفويض من أشرف مقامات العبودية، ولا علة فيه، وهو من مقامات الخاصة خلافاً لزاغمي خلاف ذلك.

والجاء الظهر إليه سبحانه يتضمّن قوة الاعتماد عليه، والثقة به، والسكون إليه، والتوكل عليه، فإن من أسند ظهره إلى ركن وثيق، لم يخف السقوط.

ولما كان للقلب قوتان: قوة الطلب، وهي الرغبة، وقوة الهرب، وهي الرهبة، وكان العبد طالباً لمصالحه، هارباً من مضاره، جمع الأمرين في هذا التفويض والتوجه، فقال: رغبة ورهبة إليك، ثم أثنى على ربه، بأنه لاملجأ للعبد سواء، ولا منجأ له منه غيره، فهو الذي يلجأ إليه العبد ليُنَجِّيه من نفسه، كما في الحديث الآخر: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»^(٢)، فهو سبحانه الذي يُعيدُ عبده ويُنجيه من بأسه الذي هو بمشيئته وقدرته،

(١) هو من أبيات «الكتاب» ١٧/١، أورد «البغدادى في «خزانة الأدب» ٤٨٦/١، وذكر

أنه من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها.

(٢) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) في الصلاة: باب ما يقال في الركوع والسجود من حديث عائشة.

فمنه البلاءُ ومنه الإعانةُ، ومنه ما يطلب النجاة منه، وإليه الالتجاء في النجاة، فهو الذي يلجأ إليه في أن يُنجيَ مما منه، ويُستعاذ به مما منه، فهو ربُّ كل شيء، ولا يكون شيء إلا بمشيئته: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٧] ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٧] ثم ختم الدعاء بالإقرار بالإيمان بكتابه ورسوله الذي هو ملاك النجاة، والفوز في الدنيا والآخرة، فهذا هديه في نومه.

لَوْلَمْ يَقُلْ إِنِّي رَسُولٌ لَكَ نَ شَاهِدٌ فِي هَدِيهِ يَنْطِقُ

فصل

هدية ﷺ في اليقظة

وأما هديه في يقظته، فكان يستيقظ إذا صاح الصارخ وهو الديك، فيحمدُ اللهَ تعالى ويكبره، ويهلله ويدعوه، ثم يستاك، ثم يقوم إلى وضوئه، ثم يقفُ للصلاة بين يدي ربه، مناجياً له بكلامه، مثنياً عليه، راجياً له، راغباً راهباً، فأئى حفظ لصحة القلب والبدن، والروح والقوى، ولنعيم الدنيا والآخرة فوق هذا.

فصل

هدية ﷺ في الرياضة

وأما تدييرُ الحركة والسكون، وهو الرياضة، فنذكر منها فصلاً يعلم منه مطابقة هديه في ذلك لأكمل أنواعه وأحمدها وأصوبها، فنقول:

السبب الموجب للرياضة

من المعلوم افتقارُ البدن في بقائه إلى الغذاء والشراب، ولا يصير الغذاء بجملته جزءاً من البدن، بل لا بد أن يبقى منه عند كل هضم بقية ما، إذا كثرت على ممر الزمان اجتمع منها شيء له كمية وكيفية، فيضُرُّ بكميته بأن يسد ويثقل البدن، ويوجب أمراضَ الاحتباس، وإن استفرغ تأذى البدن بالأدوية، لأن أكثرها سميّة، ولا تخلو من إخراج الصالح المنتفع به، ويضر بكيفيته، بأن يسخن بنفسه، أو بالعفن، أو يبرد بنفسه، أو يضعف الحرارة الغريزية عن إنضاجه.

فوائد الرياضة

وسدد الفضلات لا محالة ضارة تُركت، أو استفرغت، والحركة أقوى